السلوك مع الله

رحلة مع حكم ابن عطاء الله (رضي الله عنه)
في ضوء القرآن والسنة والسنن الإلهية

د. جاسر عودة

المحتويات

المحطة العاشرة: اكتشاف عيوب النفس ....
تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ مِنَ العُيوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيوبِ.

المحطة الحادية عشرة: لوم النفس ....
أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ؛ الرِّضا عَنِ النَّفْسِ. وَأَصْلُ كُلِّ طاعَةٍ وَيَقَظَةٍ وَعِفَّةٍ؛ عَدَمُ الرِّضا مِنْكَ عَنْها.

المحطة الثانية عشرة: الصحبة الصالحة ....
لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ وَلا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ. رُبَّما كُنْتَ مُسيئاً فَأَراكَ الإحْسانَ مِنْكَ، صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسوأ حالاً مِنكَ.

المحطة الثالثة عشرة: الدوام على الذكر ....
لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ؛ لأن غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ، وَمِنْ ذِكرٍ مَعَ وُجودِ يَقَظَةٍ إلى ذِكرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوَى المَذْكورِ، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.{

المحطة الرابعة عشرة: الحرية من الذل والطمع والوهم ....
ما بَسَقَتْ أَغْصانُ ذُلٍّ إلّا عَلى بِذْرِ طَمَعٍ. ما قادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ. أَنْتَ حُرٌّ مِمّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ. وَعَبْدٌ لِما أَنْتَ لَهُ طامِعٌ.

المحطة الخامسة عشرة: الشكر على النعم ....
مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها، وَمَنْ شَكَرَها فَقَدْ قَيَّدَها بِعِقالِها. ومَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلى اللهِ بِمُلاطَفاتِ الإحْسانِ قِيْدَ إلَيْهِ بِسَلاسِلِ الامْتِحانِ .

المحطة السادسة عشرة: فهم العطاء والمنع الإلهى ....
رُبَّما أَعْطاكَ فَمَنَعَكَ وَرُبَّما مَنَعَكَ فَأَعْطاكَ. إن فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء. إنَّما يُؤلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللهِ فيهِ. رُبَّما فَتَحَ لَكَ بابَ الطّاعَةِ وَما فَتَحَ لَكَ بابَ القَبولِ. وَرُبَّما قَضى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكانَ سَبَبَاً في الوُصولِ. مَعْصِيَةٌ أورَثَتْ ذُلاً وافتِقاراً خَيرٌ مِنْ طاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْباراً.

المحطة السابعة عشرة: الأنس بالله والدعاء له ....
مَتى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ بهِ. ومَتى أَطْلَقَ لِسانَكَ بِالطَّلَبِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُعْطِيَكَ.

المحطة الثامنة عشرة: الارتقاء في مقامات الأداء ....
لمّا عَلِمَ الحَقُّ مِنْكَ وُجودَ المَلَلِ، لَوَّنَ لَكَ الطّاعاتِ. وَعَلِمَ ما فيكَ مِنْ وُجودِ الشَّرَهِ فَحَجَرَها عَلَيْكَ في بَعْضِ الأوْقاتِ، لِيَكونَ هَمُّكَ إقامَةَ الصَّلاةِ لا وُجودَ الصَّلاةِ، فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيمٌ.

المحطة التاسعة عشرة: الاضطرار والفقر إلى الله ....
ما طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرارِ، وَلا أَسْرَعَ بِالمَواهِبِ إلَيْكَ مِثْلُ الذِّلَّةِ والافْتِقارِ.

المحطة العشرون: اليقين والزهد ....
لَوْ أشْرَقَ لَكَ نورُ اليَقينِ لَرَأيتَ الآخِرَةَ أقْرَبَ إلَيْكَ مِنْ أنْ تَرْحَلَ إلَيْها، وَلَرَأيْتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا وقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَناءِ عَلَيْها.

المحطة الحادية والعشرون: التعامل مع مديح الناس ....
النّاسُ يَمْدَحونَكَ لِما يَظُنُّونَهُ فيكَ، فَكُنْ أنْتَ ذاماً لنَفسِكَ لِما تَعْلَمُهُ مِنها. أجْهَلُ النّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقينَ ما عِنْدَهُ لِظَنٍّ ما عِنْدَ النّاس.

المحطة الثانية والعشرون: الرحمة مع المخطئ ....
من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه

المحطة الثالثة والعشرون: شهود فضل الله وتقصير العبد ....
إذا أرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الرَّجاءِ فاشْهَدْ ما مِنْهُ إلَيْكَ. وَإذا أرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الخَوفِ فاشْهَدْ ما مِنْكَ إلَيْهِ.

المحطة الرابعة والعشرون: مراعاة الأولويات ....
مِنْ عَلاماتِ اتِّباعِ الهَوى المُسارَعَةُ إلى نَوافِلِ الخَيْراتِ، وَالتَّكاسُلُ عَنِ القِيامِ بِالواجِباتِ.

المحطة الخامسة والعشرون: التعبير للخلق عن الحق ....
كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ القَلْبِ الَّذي مِنْهُ بَرَزَ. مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعْبيرِ فُهِمَتْ في مَسامِعِ الخَلْقِ عِبارَتُهُ، وَجُلِّيَتْ إلَيْهِمْ إشارَتُهُ.

المحطة السادسة والعشرون: الرضى ....
مِنْ تَمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أنْ يَرْزُقَكَ ما يَكْفيكَ وَيَمْنَعَكَ ما يُطْغيكَ. لِيَقِلَّ ما تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ ما تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

المحطة السابعة والعشرون: التواضع ....

لَيْسَ المُتَواضِعُ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأى أنَّهُ فَوْقَ ما صَنَعَ. وَلَكِنَّ المُتَواضِعَ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأى أنَّهُ دُونَ ما صَنَعَ.

المحطة الثامنة والعشرون: بركة العمر وامتداد الأثر ....

رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ وَقَلَّتْ أمْدادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قليلَةٌ آمادُهُ كَثيرَةٌ أمْدادُهُ. فمَنْ بُورِكَ لَهُ في عُمُرِهِ أدْرَكَ في يَسيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعالى ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوائِرِ العِبارَةِ وَلا تَلْحَقُهُ الإشارَةِ.

خاتمة: عود على بدء الرحلة ....

الخِذْلانُ كُلُّ الخِذْلانِ أنْ تَتَفَرَّغَ مِنْ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْهِ.

*****

مقدمة

بداية الرحلة

لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، مباركًا عليه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على أسعد الخلق وخاتم الرسل محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. ثم أما بعد،

بداية نسأل الله عز وجل ونرجوه برحمته وفضله ومنّه وكرمه المحض، أن يفتح علينا من رحمته وفضله وكرمه، ليس لشيء مما نفعل، ولا بشيء مما نعلم. فإنه يعلم ولا نعلم، وهو علام الغيوب سبحانه وتعالى، وهو يقدر ولا نقدر، وهو على كل شئ قدير.

هو الذي ييسر الخير حيثما كان وأينما كان، نفوض الأمر إليه، ونسلم الأمر له، ونرجوه عز وجل أن يعصمنا من الحيرة والجهل، وأن يستر عيوبنا، ويلم شتاتنا، ويوفقنا لما يحب ويرضى من القول والعمل، وأن تكون رحلتنا هذه التي نشرع فيها هي رحلة تغيير حقيقي في أنفسنا.

والحق أنه من الصعب جدًا أن تتغير النفس، أو تتريض في الخير، أو ترتقي في منازل الحق، إلا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وبرحمته. {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.

وإنه من سنن الله تعالى التي لا تتخلف أنه كلما شكرناه زادنا، وكلما استغفرناه رزقنا، وكلما اضطررنا في دعائنا أجابنا، وكلما زاد رجاؤنا فيه أعطانا، ليس عطاء وزيادة ورزقاً دنيوياً فحسب وإنما كل أنواع الرزق، مادي وروحي، دنيوي وأخروي. والقضية في النهاية قضية توكل ودعاء وإنابة وعودة إليه سبحانه وتعالى.

وكما يظهر من عنوان هذا الكتاب، هذه رحلة نتدارس فيها بعضاً من قواعد السلوك والأخلاق، هي رحلة مع الله وإلى الله، رغم أنه قريب، سبحانه وتعالى، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}، أو بتعبير

حكمة من الحكم التي نتدارسها في هذا الكتاب: (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك). فالله قريب، ولكنّ البعد منّا نحن ونحتاج أن نتدارس كيف نتغلب على هذا البعد.

أما السلوك والخلق المقصود هنا فهو ليس مع الناس –رغم أهميته- وإنما السلوك هنا يعني السلوك مع الله سبحانه وتعالى، بل والسلوك إلى الله سبحانه وتعالى، والأخلاق هنا تعني الأخلاق مع الله عز وجل، أي تخلق العبد بما يليق بكونه عبداً لله تعالى، أي بما يليق بصفات الله وأسمائه الحسنى. وهو جانب على قدر عال من الأهمية في الإسلام، وفي شريعة الإسلام، ننساه كثيرًا ولا نوفيه حقه، ونحتاج إلى أن نذكر أنفسنا به.

والحديث هنا ليس عن شعائر الإسلام ولا شرائع الإسلام، وإنما عن الكيفية التى نقوم بها بهذه الشعائر والشرائع، والآداب المطلوبة لذلك. أي: كيف نتعامل مع الله عز وجل بأدب؟ وكيف نتوب بصدق؟ وكيف نتوكل بحق؟ وكيف نفوض الأمور إليه بإخلاص؟ وكيف نخشع؟ وكيف نذكر؟ وكيف نتفكر؟ وكيف نرضى؟ وكيف نتواضع؟ وكيف يمكن للعبد الفقير الضعيف المذنب من أمثالي أن يقترب من الرحمن سبحانه وتعالى؟ وأن يتزكى؟ {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها}.

هذه التزكية، وهذا العلم –علم التزكية- هو من علوم الإسلام الأصيلة، قد يطلق عليه بعض الناس: علم التصوف، أو يطلق عليه البعض مصطلحات أخرى، مثل علم الخشوع، أو علم السلوك، أو علم الربانية، أو علم القلوب، أو علوم الباطن. والمصطلحات لا تهم، وإنما المهم ما وراء المصطلحات من معاني.

ولكن، لماذا نحتاج إلى علم مستقل للتزكية؟ أو ما هو معروف بعلم التصوف؟

والجواب أن العلم -أي علم- يتطور بحسب حاجة الناس إليه، حتى العلوم الشرعية. فحين بدأ الإسلام لم يكن هناك في العلوم ما يسمى

بعلم التفسير، ولا علم الفقه بالمعنى المعروف، ولا علم الحديث، ولا علم الرجال، ولا علم الأصول، ولا علم الدعوة، ولا علم الكلام. وإنما الذي حدث أن الناس قد احتاجوا إلى إبتداع وتقسيم وتصنيف هذه العلوم لكي يتعلموا أولاً ويعلموا ثانياً.

ولكي تتعلم التفسير، تذهب لعلماء التفسير، وهو علم له بداية وله نهاية وله كتب معروفة وله أعلام. ولكى تتعلم الفقه، تذهب لعلماء الفقه، والفقه أيضاً علم له تاريخ وله كتب ومذاهب معروفة وأعلام معروفون. وهكذا سائر العلوم، دينية كانت أو دنيوية، اجتماعية كانت أو إنسانية، نظرية كانت أو عملية.

ثم إن العلم يتدرج بمستوى الطالب من مستوى المبتدئ في السنة الأولى إلى مستوى أعلى وأعلى، حتى يصل إلى مستوى البحث والتأليف والإبداع والتخصص في هذا العلم أو ذاك.

وعلم السلوك، أو علم التصوف، أو علم التزكية، سَمِّه ما شئت، هو علم من علوم الإسلام، لم يكن معروفًا بهذا الاسم في بداية الإسلام، كغيره من العلوم، ثم تطوَّر هذا العلم كما تطورت العلوم الإسلامية. نعم، انحرف به أناس كما انحرف أناس بالفقه، وانحرف أناس بعلم الكلام، وأناس بالتفسير، وانحرف بعض الأصوليين بأفكار، ولكل علم منتسبون إليه يسيئون استغلاله بشكل أو بآخر، لكن الانحراف بالعلم لا ينفى العلم نفسه ولا ضرورته للتعليم وللتعلم، كما أسلفت.

وهذا العلم يهدف إلى تزكية النفس حتى ترتقي في مراتب المعرفة بالله ومنازل العبادة لله. ولكن، ممن نأخذ هذا العلم؟ نأخذه ممن جمع بين علوم الظاهر والباطن –كما يقول أهل التصوف-، أى بين العلوم الشرعية كلها، لأن هذا العلم أيضًا هو من علوم الشريعة وينبغي أن يفهم في إطارها ولا يتناقض معها.

ونجد كثيراً من طلبة العلم بل ومن أهل العلم - نجد من يساوي الشريعة بالفقه، والشريعة لا تساوي الفقه، لأن الفقه جزء من الشريعة، والشريعة مجالها أوسع. الشريعة تشمل السلوك مع الله،

وهو عنصر هام، وتشمل أيضا العلوم الأخرى التى تتعلق بدين الله ووحيه المنزل بشكل أو بآخر.

ولا ينبغي أن يصدنا عن هذا العلم انحراف بعض الناس به، أو غفلة بعض الناس من المنتسبين له عن قضايا العصر، أو عن قضايا الإسلام، أو قعودهم عن العمل، أو تبنيهم لفهم خاطئ مثلًا للتوكل حتى يصبح تواكلاً، أو فهم خاطئ للرجاء في الله سبحانه وتعالى حتى يصبح أمناً، أو فهم خاطئ للخوف من الله سبحانه وتعالى حتى يصبح قنوطاً، أو غير ذلك من الأفهام التي تنحرف وتتطرف ولا تعدل ولا تزن بالقسطاس المستقيم – لا ينبغي أن يصدنا ذلك، وإنما ينبغي أن نأخذ هذا العلم بميزان من العدل والقسطاس والتوسط.

وسوف نتدارس فيها إن شاء الله بعض القواعد والآداب في السلوك مع الله، نأخذها من أحد أعلام الإسلام، الذي جمع فعلاً بين علوم الظاهر والباطن، وهو العارف بالله الشيخ الإمام أحمد بن عطاء الله السكندري رحمه الله ورضى عنه، والذي كتب في هذا العلم في صيغة (حِكَم)، كل حكمة عبارة عن جملة بليغة تعالج موضوعاً دقيقاً، وترشد المسلم إلى خطوة في طريق الله عز وجل. وهذه الحكم هي في الحقيقة رحلة إيمانية بمعنى الكلمة، انتقيت منها ثلاثين مقطعاً أقدمها في صورة (محطات) أو معالم في طريق هذه الرحلة.

وتبدأ الرحلة بالسلوك إلى الله من خلال التوبة والرجاء والإخلاص والتوكل والتفكر وتخليص النفس من عيوبها، وتنتهي بنا إلى مقامات الخشوع والرضى والإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

والإمام ابن عطاء الله، دليلنا في هذه الرحلة، اسمه على مسمى! فقد أعطاه الله من العلم والحكمة القدر الكبير. {يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا}. فهو فقيه، ومحدِّث، ونحوى، وله باع في علوم شرعية ولغوية مختلفة، ليس فقط في علم التصوف. ذلك لأنه لابد أن ينضبط هذا العلم –علم السلوك- بالفقه والحديث وغيرهما من علوم الشريعة، ولا ينحرف عنهما. فلا ينبغي لأهل السلوك أن يُحِلُّوا حرامًا ولا أن يُحَرِّموا حلالاً، وهذا العالم فقيه

بالحلال والحرام، معروف بإمامته في الفقه المالكي، وشهد له مشايخه وتلاميذه ومعاصروه بالقدرة على الإفتاء والدعوة في (المذهبين)، أي مذهب أهل السلوك ومذهب أهل الفقه، وله مؤلفات كثيرة معروفة، وناظر شيخ الإسلام ابن تيمية –وكان من معاصريه- في بعض المسائل. وقد عاش ابن عطاء الله في القرن السابع الهجري في الإسكندرية المصرية، ومات في بدايات القرن الثامن الهجري (709 هـ)، رحمه الله ورضي عنه.

أما المنهج الذي اتبعته في الشرح فيبدأ بإثارة بعض الأسئلة حول معنى الحكمة والإجابة عليها عن طريق شرح للحكمة بلغة سهلة في سياق المرحلة أو (المحطة) في الرحلة. ثم التأصيل والتدليل على كل معنى جديد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فأحياناً ما يبدو كلام أهل السلوك غريباً، مثل (الوصية بالعزلة)، أو (عدم الاعتماد على العمل)، أو (عدم الرضا عن النفس)، أو (البركة). ولكننا حين نعود إلى الأصول، مثل: (اعتكاف النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان وغير رمضان)، أو حديث (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله)، أو آية {لا أقسم بالنفس اللوامة}، أو ذكر (البركة) في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - تثبت الحجة ويتضح المعنى ويزول الإشكال.

هذا وقد حاولت كذلك أن أربط هذه الحكم البليغة المعاني بأصول أخرى عقلية ونقلية اصطلح على تسميتها بـ (السنن الإلهية)، وهي تلك القواعد النافذة المطردة التي جعلها الله قوانين تنتظم بها حركة الكون، كوحدة الأصل، والتنوع، والتوازن، والزوجية، وما يتولد عنها من سنن أخرى تقوم عليها حياة الإنسان كفرد ومجتمع، كالعدل، والابتلاء، والتدافع، والتداول، والجزاء، وما إلى ذلك مما يرد مشروحاً في بعض ثنايا الكتاب – لعل في ذلك مزيد حكمة وجميل معنى.

وأصل هذا الكتاب دروس تراويح رمضانية ألقيتها في رمضان من عام 1429هـ في مسجد حراء بالمقطم بالقاهرة، وهو مسجد جميل كان قد بناه الشيخ الدكتور عبد الله شحاته، رحمه الله؛ ثلاثين درساً قُسمت على ليالي الشهر المبارك، وهى بالتالي مكتوبة هنا في ثمانية

وعشرين فصلاً أو (محطة) من محطات هذه الرحلة، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. وهو ما يفسر أيضاً الأسلوب الإلقائي الذي سوف يلمسه القارئ الكريم، والذي اخترت أن أبقي عليه بعد بعض التهذيب والتعديل.

و(الحكم العطائية) لها عشرات الشروح قديمة ومعاصرة في صور مختلفة، أجمل ما قرأت وتعلمت منها هى شروح ابن عباد والشيخ زروق وابن عجيبة، ومن المعاصرين شروح أستاذنا الراحل الشيخ محمد الغزالي والأستاذ سعيد حوى والشيخ الدكتور على جمعة.

وهذا الكتاب المتواضع لا أعتبره شرحاً جديداً، وإنما هى خواطر حول بعض الحكم العطائية، دعوت المولى عز وجل أن ينفعني بها، ولعله يريد أن ينفع بها آخرين بفضله الذي عوّدني عليه!

نسأل الله عز وجل أن يروضنا بهذه الرياضة الروحية وهذه الحكم الربانية حتى ننيب، ونتوجه إليه سبحانه بشكل أصدق وأعمق، ولا يبعد هذا عن كرمه مهما قصرنا، ولا عن رحمته مهما بدر منا من مساوئ، ولا عن فضله مهما صدر منا من تقصير، والله المستعان وعليه التكلان، وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

جاسر عودة
لندن – آخر رمضان 1430 هـ
الموافق 2009/9/19 م

المحطة الأولى

التـوبة والرجـاء

مِنْ عَلامَةِ الاعْتِمادِ عَلى العَمَلِ نُقْصانُ الرَّجاءِ عِنْدَ وُجودِ الزَّلَلِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

نويت أن أبدأ رحلة إلى الله سبحانه وتعالى! لكن السؤال هو: من أين أبدأ؟ وعلام أعتمد؟ هل يصح أن أسترجع من ذاكرتي عملي الصالح وأعدّده، ثم أعتمد عليه في بدء الرحلة؟ والجواب الذي يبينه الشيخ في هذه الحكمة هو: لا، لا يصح أن أعتمد ولو على عملي الصالح، وإنما أبدأ رحلتي إلى الله اعتماداً على الله فقط، واستحضاراً لرحمته وفضله فقط.

ويسأل سائل: أليست الرحمة من الله هي نتيجة لعملي الصالح؟ والجواب أيضاً: لا! لأنه: ماذا لو قصّرتُ في عملي الصالح؟ هل تتوقف الرحمة الإلهية؟ هل ينقطع الفضل الإلهي؟ والجواب: لا، {ولَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ}. إذن، فلأعتمد على هذه الرحمة الإلهية وهذا الفضل الإلهي مهما قصرت، وهذا هو السبيل للبداية الصحيحة.

والبداية الصحيحة لابد أن تقترن أيضاً بالتوبة من الزلل والخطأ. فمن سنن الله تعالى في كونه أنني إذا أردت أن أضيف شيئاً ما إلى أي مكان، لابد أن يكون هناك فراغ متاح لهذه الإضافة. فإذا أردت أن أملأ قلبي بالنور وبذكر الله، لابد أن أفرّغه أولاً مما يتعارض مع ذلك، من الأقذار والظلمات والبقع والذنوب. ساعتها، يتيسر بفضل الله تعالى ملؤه بالخير، أو بتعبير أهل التصوف: (لابد من التخلي ثم التحلى ثم التجلى)! إذن، أبدأ بأن أتوب لله عز وجل من التقصير. {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

ومع التوبة هناك معنى آخر ضروري يركز عليه الشيخ في هذه الحكمة الأولى، ألا وهو الرجاء. لابد أن أستصحب التوبة والرجاء. أما السؤال عن كيفية ربط التوبة بالرجاء في هذه البداية، فهذا هو الذي يبينه الشيخ.

يقول رحمه الله ورضى عنه: (من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل). ومعناه: علامة من العلامات التي تعرف بها أنك تعتمد على عملك، وتتوكل على عملك، وتضع كل همك في عملك، لا في رحمة الله وفضله، هو: أن يقل رجاؤك في الله سبحانه وتعالى حين تزل وتخطئ ثم تشرع في التوبة.

أولاً، التوبة لها شروط:
الشرط الأول: الندم على المعصية.
الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية.
الشرط الثالث: العزم على ألا تعود إلى المعصية.
الشرط الرابع: إذا كانت التوبة متعلقة بحق من حقوق العباد، فلابد أن ترد هذا الحق إلى أصحابه.

فإذا أردت أن تتوب وقبل أن ندخل في معاني الرجاء ومعاني الاعتماد على العمل، لابد أن تحقق الشروط الواجبة للتوبة، والشرط الأول هو الندم، أي أن تندم على المعصية. و(الندم توبة)، كما علمنا صلى الله عليه وسلم.

وأما الإقلاع، فهو الإقلاع عن المعصية. فلا يمكن أن تستمر في المعصية وتقول: أنا تائب! وأنت مستمر. هذا نفاق لا يجوز.

وأما الشرط الثالث فهو أن تعزم على ألا تعود إلى المعصية. يعني: لا يمكن أن تندم، ثم تقلع، ثم تنوي في نفسك: سأعود إذن في الأسبوع القادم! وإنما تندم وتقلع وتعزم بصدق على أن لا تعود إلى معصية أبداً. فإذا حدث وعدت، لابد أن تجدد التوبة وتجدد الندم العزم وبصدق على أن لا تعود، وهكذا. والله غفور حليم ورحمن رحيم، لا يعزّ عليه أن يقبل التوبة مرات ومرات، بل هو يفرح بتوبة العبد كل مرة.

وأما الشرط الرابع، فقد قال العلماء: إذا كانت التوبة متعلقة بحق من حقوق العباد، فلابد أن ترد هذا الحق إلى أصحابه، يعني مثلاً إذا أخذت شيئًا بغير حق أن ترد هذا الشيء، أو كان هناك ظلم في قضية ما، فلابد أن تصلح هذا الظلم من نفسك، أو أن تنسب الحق إلى أصحابه، أو أن تستسمح الناس في أعراضهم أو أموالهم، وهكذا.

والشيخ هنا يفترض أنك مستوف لهذه الشروط. ولكن الحديث هنا عن أدب من آداب التوبة، وهو الرجاء، والآداب غير الشروط. وإنك إذا حققت هذه الشروط لابد معها أن تتحقق بالأدب وأن ترجو الله سبحانه وتعالى رجاء أن يقبل توبتك. { أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

ولكنه أحيانًا ما يقدح في هذا الرجاء الآتي: أن تقول: كيف أرجو رحمة الله سبحانه وتعالى وأنا قد ارتكبت هذا الخطأ؟ وقد فعلت كذا وكذا؟ كيف يقبل الله سبحانه وتعالى توبتي؟ ويؤثر هذا الكلام على رجائك في الله سبحانه وتعالى بل قد يتحول الإنسان إلى القنوط

واليأس من رحمة الله، والعياذ بالله. {وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ}.

والشيخ هنا يقول: لا ينبغي أن تؤثر الذنوب على الرجاء، مهما كانت الذنوب! لأنه إذا صحت التوبة فإن الله عز وجل يقبلها. (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)، كما قال صلى الله عليه وسلم.

فإن تبت توبة نصوحاً فإن الله عز وجل سوف يقبل توبتك مهما كانت الذنوب، وهذه الذنوب لا تساوي شيئا عند الله سبحانه وتعالى، (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا أتيتك بقرابها مغفرة)، كما في الحديث القدسي.

إذن، الرجاء هنا لا ينبغي أن يتأثر بحجم الذنب، وإنما ينبغي للقلب أن يخلص النية في هذه التوبة وأن يرجو رحمة الله سبحانه وتعالى. و(أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء)، كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي.

وإذا استكبرت الذنب على رحمة الله، أي قلت: (ذنوبي كبيرة وكثيرة، ولن يقبل الله عز وجل توبتي)، إذا فعلتَ ذلك فأنت لم تصحح الرجاء ولم تتوكل على الله حق توكله. بل أنت متوكل على نفسك، متوكل على عملك، أنت عبد للعمل وليس عبداً لله. أنت تظن أنك بعملك وحده تضمن رحمة الله، وهذا خطأ!

وبالطبع هذا لا يعني أن نترك العبادة ونهمل العمل، ولكن يعني ألا نعتمد على العبادة أو العمل الصالح، لأن العمل الصالح وحده لا يكفي لا في قبول التوبة ولا في دخول الجنة!

وهذا الكلام ليس بدعاً من القول كما قد يتوهم البعض. فقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الستة: (سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة). والحديث له روايات

منها: (إلا أن يتغمدني الله بفضله)، و(إلا أن يتغمدني الله برحمة). و(سددوا وقاربوا)، أي: اجتهدوا قدر الإمكان.

يعلمنا صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث نفس معنى هذه الحكمة التي صاغها الشيخ ابن عطاء هنا. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله)، فهل معنى هذا أن نيأس؟ لا طبعًا، ليس هذا معنى الكلام، وإنما معنى الكلام أنه لا ينبغي أن تعتمد على العمل بل على الرحمة الإلهية.

ومن حسن الاعتماد على الله ألا تنظر إلى عملك الصالح على أنه كبير أو خطير، يعني أنني إذا وقفت ساعة بين يدي الله سبحانه وتعالى أو أنفقت في سبيل الله نفقة معتبرة، فلا يصح أن أبدأ بالشعور بالفرح بنفسي وكأن لي دالة على الله والعياذ بالله.

فلا تعتمد على العمل الصالح إن عملته. وإن حدث العكس وأخطأت، فلا يصح أن تتساءل كيف يقبل الله تعالى توبتي وقد أخطأت؟ لا تشكّ في سعة رحمة الرحمن. في كل الأحوال لابد أن تكون مؤمناً يرجو رحمة الله ويعتمد عليها ويتعلق بها.

ومن الانحرافات في هذا الباب أن يتعدى الرجاء إلى (الأمن). وهذا يعني أن يأمن الإنسان من العقاب. { وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}، وهذا قد ورد في شأن بعض الأمم من قبلنا وقد كانوا يظنون أنهم شعب الله المختار أبداً، بغض النظر عن عملهم، كما يظن بعض المسلمين اليوم أنهم ما داموا مسلمين فمهما فعلوا فلا يهم ولا يضر، وقد قال تعالى: {فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

فلا ينبغي للرجاء أن يصبح أمناً أو توهم وجود ضمان مع الله سبحانه وتعالى، ليس هناك ضمان إلا في الجنة، وأبو بكر رضي الله عنه كان يقول: (لو أن إحدى قدمي في الجنة، ما أمنت مكر الله). لابد أن يكون هناك توازن بين الرجاء وبين معنى آخر، ألا وهو الخوف من الله سبحانه وتعالى، وهذه كلها من معاني التوبة، فأنت تتوب إلى الله سبحانه وتعالى ليس فقط رجاء وإنما أيضًا خوفًا.

والكافر يقنط ويقول لن يغفر الله لي، فيمتد في كفره وهذا أيضاً من الانحرافات ومن الأخطاء. والله تعالى يقول: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}، فالمجرم هو الذي يرفض هذا العرض الكريم بالتوبة والإصلاح. والمطلوب هنا هو أن يكون هناك توازن بين الرجاء وبين الخوف.

إذن، أول خطوة في هذا الطريق تصحيح الرجاء في الله. تبنا إلى الله، ورجعنا إلى الله، وندمنا على ما فعلنا، وبرئنا من كل ذنب، وبرئنا من كل تقصير، وبرئنا من كل دين يخالف دين الإسلام، نشهد أن لا اله إلا الله ونشهد أن محمدًا رسول الله، وصلى اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

المحطة الثانية

غلبة السنن الإلـهية

سَوَابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أسْوارَ الأقدارِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت الرحلة في السلوك إلى الله بحكمة ترشدنا إلى الرجاء فيه سبحانه وتعالى، وإلى عدم تأثر هذا الرجاء ولو بالخطأ الذي يرتكبه الإنسان، لأنه لا خطأ يعظم على رحمة الله سبحانه وتعالى إذا صحت التوبة.

ولكن أحياناً حين يبدأ الإنسان بداية جديدة تأخذه الهمة ويأخذه الحماس، ويحاول أن يغير نفسه وأسرته والمجتمع والعالم والكون في ليلة! أو يحاول ويجتهد أن يحصّل نوراً أو علماً أو فكراً أو خيراً أياً كان دون مراعاة لما أطلق عليه الشيخ رحمه الله هنا (أسوار الأقدار).

يقول الشيخ رحمه الله ورضي عنه: (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار). ما معنى هذا الكلام؟

الهمم: جمع همة، والهمة هي النشاط والنية في العمل والحركة، هذه الهمة حتى لو كانت سابقة، حتى لو كانت من سوابق ومعالي الهمم، فهي لا تخرق قدر الله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر}.

فهناك أقدار لله سبحانه وتعالى لن نستطيع أن نخرقها ولو ارتفعت الهمم. وهذه الأقدار هي سنن الله في كونه الذي خلقه متسقاً معها، وقال: {لن تجد لسنة الله تبديلاً}، وقال: {ولن تجد لسنة الله تحويلاً}.

فمن سنن الله تعالى: أنه خلق الحياة بنظام معين وخلق لها ظروف معينة تترتب عليها نتائج معينة، ولا يستطيع المسلم ولا غير المسلم أن يخرق هذه الأسوار مهما كان، أو أن يصل إلى النتائج دون المسببات والخطوات والظروف ونواميس الكون!

فمثلًا قال سبحانه وتعالى: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}؟ هذه سنة الابتلاء، وهي من سنن الله تعالى في الناس، أي إذا ادعيت الإيمان والصدق فإن الله عز وجل سيبتليك، ولا

تستطيع أن تتجاوز الابتلاء ولو علت الهمة، ولو حاولت أن تهرب، لأن هذه من سنن الله وقوانين الكون.

ومن سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه: قضية الوقت والتدرج. فالوقت شيء خلقه الله سبحانه وتعالى للبشر يدركونه كلٌّ حسب علمه، ولكن الوقت لا يجوز على الله سبحانه وتعالى، ليس لله قبل ولا بعد ولا عنده زمان كذا أو ساعة كذا. هذا الشيء لا يجوز على الله سبحانه وتعالى وإنما هو للبشر. ومن سنن الله تعالى في الكون ومن طبائع الأشياء أن تأخذ الأهداف وقتاً حتى تنجز. لا نستطيع أن ننقل العالم من حال إلى حال في لحظة، ولا تستطيع أن تغير نفسك في لحظة، ولن تستطيع أن تغير الأشياء من حولك في لحظة. هذا لن يحدث. و(من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه)، كما يقول الفقهاء. وإنما لابد من العمل الدءوب، ولابد من التدرج، ولابد من الوقت.

هذه من أسوار الأقدار التي يتحدث عنها الشيخ. وقد يصيب الإنسان الذي يريد أن ينقل نفسه أو يغير العالم في دقائق - قد يصيبه اليأس؛ لأنه لم يدرك هذه السنّة، أن لله سبحانه وتعالى له في خلقه أقدار هى أسوار ليس في القدرة البشرية تجاوزها أو تخطّيها.

هذا، ومن أسوار الأقدار التي ينبغي للمسلم أن يضربها على نفسه أحيانًا، ما يسميه العلماء بـ (واجب الوقت)، أي أن هناك مرحلة من حياتك لابد فيها أن تعتني بالصغار أو الكبار -مثلاً- وتهتم بشئونهم بشكل قد يستوعب الكثير من وقتك وجهدك، وهناك مرحلة من حياتك لابد أن تعمل عملاً دءوباً حتى تكتسب مالاً لتتزوج مثلاً، وهناك مرحلة من حياتك لابد أن تسافر فيها، ويقتضي واجب الوقت عليك أن تتغرب، أو يقتضى الوقت عليك أن تتفرغ لتحصيل العلم، أو يقتضى الوقت عليك أن ترتاح إذا مرضتَ مثلاً لا قدر الله. ولا تستطيع في هذه الأمثلة وغيرها أن تخرق أسوار الأقدار، لا تستطيع أن تتصرف بعد المرض كما كنت قبل المرض، أو بعد السبعين كما كنت قبل الأربعين مثلاً، هذه كلها من أسوار الأقدار ومن مراعاة واجب الوقت.

ولابد أن تراعي واجب الوقت حسب ما تعلمه أنت من نفسك، فتعلم أن من واجب الوقت في هذه المرحلة من حياتك أن تتفرغ للعلم وللمذاكرة وللتحصيل مثلًا، وأن تبتعد عن كل ما يشغلك؛ لأن هذا هو واجب الوقت، أو تعلم أن أولادك في ضائقة مثلًا وواجب الوقت أن تساعد الأولاد وأن تضع من الجهد والوقت أكثر مما هو معتاد، لأن واجب الوقت اقتضى عليك أن تساعد الأخ أو الأب أو الأم أوالأخت أو الصغيرة.

وإذا تفرغت من هذا كله فلعل واجب الوقت أن تتفرغ للعبادة، كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}. ولن تخرق أسوار الأقدار في ذلك أيضاً. فلعلك تقول: (أنا عندي من الوقت ما يسمح أن أحفظ القرآن)، لكنك لن تحفظ القرآن في يوم ولا في شهر، وإن حفظته في شهر فستنساه في شهر، وإنما لابد أن تأخذ واجب الوقت وتراعي سنن الله في خلقه.

هذه السنن الإلهية وهذه القوانين الكونية لا تستطيع أن تحطمها بل هي التي قد تحطمك إن عارضتها. إذا أردت أن تقف أمام قوانين الكون وسنن الله عز وجل في الكون، فاعلم أن هذه السنن سوف تتعبك، (إن هذا الدين متين)، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: (فأوغل فيه برفق)، أي حتى اكتساب الدين له مراحله؛ لن تستطيع أن تتعلم كل الدين، أو تمارس كل الدين، يعني تنتهي من كل الواجبات والمندوبات في يوم. ثم قال صلى الله عليه وسلم: (فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى): أى أن الذي يأخذ الدابة ويسافر بها ليل نهار لا يتوقف ولا يستريح ولا يعتبر بسنن الله ولا بأسوار الأقدار، هذه الدابة ستفنى حتى لو علت الهمة! وقال صلى الله عليه وسلم: (لا أرضاً قطع)، أي لم يقطع المسافة المطلوبة، (ولا ظهراً أبقى)، أي لو كان هذا الظهر دابة حقيقية فستموت الدابة، ولو كان هذا الظهر هو أنت بجسدك المحدود، فسينهار هذا الجسد.

وإذا كانت الحكمة السابقة قد أرشدتنا إلى التوازن بين الخوف والرجاء، فهذه الحكمة ترشدنا إلى التوازن بين الهمة وبين القدر، بين ما تهم به وتتمنى أن تفعله بالكون وبين (أسوار الأقدار) وسنن الله عز وجل، وواجب الوقت، كما مر.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الهمم العالية، وأن يلهمنا معها الحكمة، حتى نتوازن في أفعالنا، وحتى لا نحاول أن نخرق أسوار الأقدار، ولا أن نتعب هذه الدواب التي أعطانا الله عز وجل إياها حتى تفنى. فإن (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار)، والبداية المتوازنة الهادئة -مع الهمة- أحرى أن تستمر وتدوم.

وإلى المحطة التالية.

المحطة الثالثة

حسـن التوكـل

أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبيرِ. فما قامَ بِهِ غيرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بهِ لِنَفْسِكَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك معنى من المعاني الإسلامية القلبية الهامة قد يُفهم خطأً ويؤدي الفهم الخاطئ إلى عواقب لا تحمد، وإلى انحرافات وبدع بل وتخاذل في الدين والدنيا! وهذا المعنى هو التوكل على الله تعالى، والانحراف هو (التواكل)، وترك الدنيا لمن لا دين لهم، وترك العمل، و(البطالة) بتعبير أهل التصوف.

يقول الشيخ رحمه الله ورضي عنه: (أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك). فما المقصود بالتدبير هنا؟

التدبير في اللغة يعني: النظر إلى عواقب الأمور وإلى المآلات والنتائج، فالتدبير يتعلق بالنتائج.

والمآلات والنتائج تتعلق بمعنى التوكل على الله، قال تعالى: { وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، و{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، وهكذا في القرآن ترى التوكل مذكورًا وممدوحاً في آيات كثيرة، لأن التوكل معنى أساسي، وما يتكرر ذكره في القرآن نعلم أنه تزيد أهميته وأولويته.

ولكن هناك فارق معتبر بين التوكل وبين التدبير الذي يتحدث عنه الشيخ، وهو الفارق بين الأسباب والنتائج، أي بين العمل بمعنى الأخذ بالأسباب وبذل الجهد والفكر والوقت، وبين نتيجة العمل بمعنى الأحداث والأرقام والمآلات والمحصلة التي تترتب على العمل. أنت عليك العمل، وعليك الأخذ بالأسباب، وعليك التوكل، ولكن ليس عليك أن تدبر الأمر، فالذي يدبر الأمر هو الله سبحانه وتعالى. { وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟}، هذا سؤال بنص القرآن.

الله يدبر الأمور، وهو الذي عليه النتائج وأنت إنما عليك الأسباب، لأن الأخذ بالأسباب جزء من التوكل. فرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب لنا مثلًا للتوكل قال: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطاناً)، فأنت كالطائر،

وهذا الطائر لا يبقى على فرع الشجرة طول اليوم، ينتظر الحَبّ، بل يذهب ويحاول، ويطير يميناً ويساراً ويقضي نهاره كادحاً حتى يصل إلى الحَبّ، لكنّ الحَبّ نفسَه على الله سبحانه وتعالى، الطائر عليه السعي وعليه الطيران وعليه البحث، ولكن (الرزق على الله). أليس كذلك؟

إذن، عليك الأسباب وليس عليك النتائج، وهذا معنى في منتهى الأهمية؛ لأن من المسلمين -ومن أهل السلوك أحياناً- مَن ينحرف بهذا المعنى فيهمل الأسباب ويمكث في المسجد أبداً، ويسأل الناس طعامه وكسوته، ويقول: (ليس عليَّ التدبير)! نعم، ليس عليك التدبير ولكن عليك التوكل، والتوكل يستلزم الأخذ بالأسباب.

وفي الحديث أن رجلاً كان ماكثاً في المسجد أبداً بحجة (التفرغ للعبادة) فسأل صلى الله عليه وسلم: من ينفق عليه؟ قالوا: أخوه. قال: (أخوه خير منه). وأدّب عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجالاً قعدوا في المسجد بعد الصلاة وقالوا: نحن المتوكلون، وقال قولته الشهيرة: إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

أما إذا انقطعت الأسباب رغم المحاولات، فهنا محل للتوكل على الله سبحانه وتعالى. والحق أن التوكل على الله سبحانه تعالى يؤيده بل يقويه وينميه انقطاع الأسباب! فإذا انقطعت أسبابي رغم أنني قد حاولت تحصيلها قلت: يا رب لقد انقطعت أسبابي، ولم يعد لي ما أستطيع أن أفعله. ولعلّي حينئذ أتوكل على الله حق التوكل. ولكن لا يصح أن أتوكل على الله عز وجل وأنا لم أعمل شيئاً، ولم آخذ بالأسباب، أو أجرّد نفسي عمداً من الأسباب كما يفعل بعض الجهلاء، وإنما ينبغي أولاً أن آخذ بالأسباب، ثم أتوكل على رب الأرباب.

والمولى الكريم أحياناً ما يجردني من الأسباب ومن الحَول والقوة والوسائل – حتى أعود إليه، وأتوكل عليه حق التوكل، وهذه منحة غالية!

والتوكل لا ينافي ما نسمّيه بلغة العصر بالتخطيط ودراسة الجدوى ودراسات السوق، إلى آخره. هذا كله من التوكل على الله، لأنه من

الأخذ بالأسباب. فإذا كان عندك تجارة فلابد أن تأخذ بدراسة الجدوى والسوق وتأخذ بالعلم وتحسب جيداً، فإن خسرت فهو أمر الله سبحانه وتعالى، وإن نجحت فهو أمر الله سبحانه وتعالى. لكن ليس عليك التدبير بمعنى ليس عليك النتائج سواء الخسارة أو النجاح، ليس عليك المكسب أو الخسران في المال، وليس عليك النجاح أو الفشل في الامتحان، لكن عليك المذاكرة وعليك الأخذ بالأسباب. ليس عليك النجاح والفشل في مشروع ما، أو في المسائل الدينية، الدعوية منها والعلمية والعبادية، أنت تتعبد لله سبحانه وتعالى بأن تدعو الناس إلى الخير مثلاً؛ لكن: { لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}، و{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، فأنت تدعو الناس إلى الخير، لكنك لا تدبر الأمر فيما وراء ذلك، كما نقول في العامية المصرية: (مغسل ميت ولا ضامن جنة).

يقول الشيخ رحمه الله ورضى عنه: (أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك). ما المقصود بـ (غيرك) هنا؟ من الذي يقوم عنك بالرزق؟ ومن الذي يقوم عنك بالنجاح؟ ومن الذي يقوم عنك بالنتائج؟ هو الله سبحانه وتعالى، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك.

وهذه قضية عقلية بسيطة، فإذا كان إنسان متخصص مثلاً يقوم عنك بشيء من الأشياء أو عمل من الأعمال فلا يصح أن تقوم به أنت بل تدع الأمر له. فما بالك بأن الذي يقوم عنك هو الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغي لك أن تطلب هذا المكان العزيز. التدبير هو لله سبحانه وتعالى.

وصلى اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

المحطة الرابعة

الإخلاص

الأَعْمالُ صُوَرٌ قائَمةٌ، وَأَرْواحُها وُجودُ سِرِّ الإِخْلاصِ فِيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع الإخلاص أخطر من موضوع التوكل، فهو موضوع أساسي إيماني عقدي، ولكن لعل الشيخ هنا قصد بتقديم الرجاء والتوكل على الإخلاص في هذه الرحلة الإيمانية لكي يرشدنا إلى أهمية الرجاء في رحمة الله أن يرزقنا الإخلاص، بل وأهمية التوكل على الله تعالى في هذه القضية الدقيقة.

فالإخلاص سر من أسرار الله يودعه قلب من يحب من عباده، كما ورد في الحديث القدسي. والشيخ ابن عطاء الله السكندري –رحمه الله ورضي عنه- في هذه الحكمة يقول: (الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)، أي يشبّه الشيخ العمل بالجسد، والعمل بلا إخلاص كأنه جسد بلا روح، فالجسد بلا روح ليس له قيمة، وليس لأعمالنا قيمة بلا إخلاص.

ما هو الإخلاص؟ هو توجه النية وتوجه القصد لله سبحانه وتعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتواتر الذي افتتح به البخاري كتابه: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها –وفي رواية: يتزوجها-، فهجرته إلى ما هاجر إليه). فهذه هجرة وهذه هجرة. أناس هاجروا من مكة إلى المدينة وآخرون أيضاً هاجروا من مكة إلى المدينة. ولكن هجرة كانت لله ورسوله فأجر أصحابها عليها بما هو معروف، وهجرة كانت من ذلك الرجل الذي يشير الحديث إليه، وهو رجل هاجر من مكة إلى المدينة فقط ليتزوج، وهذا حلال طيب، ولعله يؤجر بنية الزواج! لكنه لا يؤجر على نية الهجرة، لأن العمل بالنية، والأمور بمقاصدها.

وقضية إخلاص النية لله سبحانه وتعالى قضية أساسية؛ لأنه بدون نية صالحة يعتبر العمل رياء، بمعنى أن الإنسان يرائي الناس ويعمل العمل من أجل أن يروه ليس إلا، وليس من أجل الله، وهو –والعياذ بالله- نوع من أنواع الشرك! قال تعالى في وصف المنافقين: {يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً}.

وذكر الله سبحانه وتعالى أيضاً من صفات الذين لهم (الويل) والعياذ بالله: {الذين هم يراءون. ويمنعون الماعون}. لابد أن يكون العمل خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى. لابد أن أسأل نفسي: لماذا أعمل هذا العمل؟ لماذا أنفق هذه النفقة؟ ولماذا أحج هذه الحجة؟ ولماذا أساعد هذا الإنسان؟ ولماذا أصلي هذه الصلاة؟ ولماذا أقرأ هذا الكتاب؟ وهكذا.

وبالإخلاص أيضاً تستطيع أن (تحول العادة إلى عبادة)، كما يقول العلماء، فتأكل وتشرب وتتزوج وتعمل وتذهب وتروح وتشترى وتبيع، هذه كلها تصبح عبادات بالإخلاص في النية وحسن النية.

فتأكل مثلًا وتنوي طبعًا سد الجوع، ولكن تنوي أيضاً أنك إذا أكلت تقويت على الطاعة، مثلًا أنوي أن آكل حتى أستطيع أن أصلي، فتؤجر على مجرّد الأكل من هذا الباب. وألبس مثلًا لكي أتزين ولكنني أيضا ألبس لأستر عورتي، هذه نية صالحة فيأجرني الله سبحانه وتعالى عليها، وألبس مثلًا حتى يظهر الإسلام بالمظهر الجيد أمام جاري غير المسلم، أو أمام الناس الذين يرون أن هذا الرجل من رواد المسجد، وهكذا.

وأعمل ليس فقط من أجل (مستقبلي) ولا من أجل (المرتب) في حد ذاته، بل من أجل ما أنفق منه على عيالي، وأتصدق منه، وأحج، وأجاهد به أنواعاً مختلفة من الجهاد. هذه كلها نيات تحول العادات إلى عبادات. بل إن العمل الدنيوي نفسه هو خدمة للآخرين بشكل أو بآخر، وقضاء لحوائجهم بشكل أو بآخر، فأؤجر عليه بهذه النية ثواباً من عند الله.

وإذا وضعنا الإخلاص والنية المتوجهة لله سبحانه وتعالى نصب أعيننا نستطيع أن نحول كل أعمالنا إلى عبادات، فتصبح كل ساعات اليوم وكل أعمال اليوم عبادات نؤجر عليها، هذا كله يدفعنا خطوات وخطوات في طريق السلوك إلى الله. فبعض الناس يسلك إلى الله سبحانه وتعالى فقط بالصلاة في أوقاتها، والزكاة حين يحول الحول، وغير ذلك من العبادات. لكن البعض الآخر يسرع في طريق الله

سبحانه وتعالى بأن يحول العادات كلها إلى عبادات، وأن يحول حياته كلها إلى نيات حسنة.

روي عن أحد الصالحين أنه سمع طارقاً ببابه وعنده بعض تلاميذه، فعدّ لهم قبل أن يفتح الباب -كما يذكر الرواة- عشرات النوايا التي نواها فقط لكي يفتح الباب! منها: نويت إذا فتحت الباب ووجدت وراءه مسكيناً أعطيته طعاماً، وإذا وجدت ملهوفاً أغثته، وإذا وجدت أعمى أرشدته، وإذا وجدت صغيراً رحمته، وإذا وجدت كبيراً وقّرته، وهكذا. هذه عادة حوّلها الرجل الصالح إلى عبادة، بإخلاص النية وهذه كلها في القلب، ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

(الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)، واستعمال الشيخ لكلمة (سر) هنا هو من نص حديث النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله سبحانه تعالى، قال: (الإخلاص سر من أسراري أستودعه قلب من أحب من عبادي). فإذا أحبك الله سبحانه وتعالى أودع في قلبك الإخلاص، وهو شيء يقر في قلب المرء، كما أخبرنا صلى الله عليه وسلم عن الشيء الذي وقر في قلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وهذا الشيء الذي يقر في القلب إذا كان الإخلاص يبلغ العمل الصالح -مهما كان محدوداً- مبلغا بعيداً، ويبلغ النفع بالمرء مبلغاً بعيداً، وهذا هو الفارق بين العمل بغير إخلاص والعمل بإخلاص، لأن ما كان لله دام واتصل، وللإخلاص بركة خاصة.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا هذا السر -الإخلاص- ونسأل الله عز وجل أن نستطيع بهذا السر أن نحول العادات إلى عبادات، وأن تكون حياتنا كلها لله سبحانه وتعالى. قال تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له}.

المحطة الخامسة

التفكر

ادْفِنْ وُجودَكَ في أرْضِ الخُمولِ، فَما نَبَتَ مِمّا لَمْ يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نِتاجُهُ. ما نَفَعَ القَلْبَ شَئٌ مِثْلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بها مَيْدانَ فِكْرَةٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وإذا استوعبنا وفهمنا –عقلياً- معاني الخوف والرجاء والتوكل والإخلاص، وأردنا أن نحوّل هذا الفهم العقلي إلي إحساس قلبي، فالطريق –كما يعلمنا الشيخ في هذه الحكمة- هو التفكّر.

والتفكر عبادة رائعة تدفعك دفعاً في طريق الله تعالى، وتسرع بك إلى الغايات القلبية والروحية، وقد ورد في الحديث: (تفكر ساعة خير من عبادة ستين عاماً). ذلك لأن الذي يجلس متفكراً في الله أو خلقه أو سننه أو دينه أو شرعه، يحوّل بفكره المعلومات العقلية البحتة إلى أحوال قلبية وأنوار روحية.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

فأولو الألباب يتفكرون في السموات والأرض والليل والنهار بناء على العلوم والمشاهدات و(المعلومات) التى نعرفها عن الكون. والمعلومات موجودة في عقول الكثير من الناس، ولكنها لا تتعدى العقول إلى القلوب. ولكن الذين يتفكّرون في الكون مستحضرين خالق الكون جل وعلا، وفي السموات والأرض مستحضرين بديع السموات والأرض ينتهى بهم التفكر إلى السجود القلبي {ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك}، بل وإلى الخوف من الله {فقنا عذاب النار}. وهكذا تنفع (الفكرة) القلب. {إنما يخشى الله من عباده العلماء}.

ولكن الشيخ هنا يرشدنا إلى معنى آخر يقوي وينمي ويعمّق التفكر، وهو كذلك معنى من المعانى التى يخطئ في فهمها الكثيرون وينحرفون بها عن مقاصد الدين وروح الإسلام، ألا وهو معنى الخمول والعُزلة.

والشيخ لايعني بـ (الخمول) هنا الكسل كما هو شائع في كلامنا الدارج! وإنما يعني خمول الذكر بين الناس والذي يتحقق بالعزلة عنهم. وهذه (العزلة) التى يحدثنا عنها الشيخ هنا عزلة محدودة لوقت محدود، وليست دائمة أبداً. فإن من الانحرافات في هذا الباب أن ينعزل المسلم عن العالم أبداً ويعتزل الدنيا، ليس بشكل مؤقت أو لهدف معين كما هو مطلوب هنا، وإنما عزلة مؤبدة وخمول قاتل! والإسلام بريئ من هذا الفعل لأنه (لا رهبانية في الإسلام)، و(المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)، كما ورد في الحديث. فالمسلم يخالط الناس، ويعمل، ويتزوج، ويصل الرحم والقريب والجار، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصادق ويعادي في سبيل الله، وهكذا.

إذن، فما هى هذه (العزلة) التي يتحدث عنها الشيخ؟ وهل لها (دليل) من سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أم أنها بدعة في دين الله؟

الأصل الواضح في قضية العزلة، بالإضافة إلى عزلته صلى الله عليه وسلم في غار حراء قبل الوحي وبعده، هو اعتكاف النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان وفي غير رمضان، كما هو معروف - ذاكراً، عابداً، مصلياً، متفكراً.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف في كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه بعده. وعنها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف عشرين من شوال.

والشيخ رحمه الله ورضى عنه يربط هذه السنة النبوية الكريمة بسنة إلهية حكيمة، وهي أن كل ما يُرجى منه النمو والإنتاج من مخلوقات

حية، سواء كانت نباتاً أو حيواناً أو حتى بشراً، لابد له من مرحلة يُدفن فيها في الظلام وينمو بعيداً عن كل العوامل الخارجية.

هكذا تنمو البذرة في ظلمة الأرض حتى تتضح جذورها وساقها ثم تشق الأرض، وهكذا ينمو الجنين في ظلمات الرحم حتى تظهر أعضاؤه وتتكون أعصابه ثم يولد، وهكذا ينمو القلب والعقل في خلوة مسجد أو في عزلة مفروضة أو غير مفروضة حتى يدخل ميدان الأفكار الربانية الروحانية، ويرحل من الأكوان إلى المكون، ومن المخلوقات إلى الخالق، ومن العلامات والأحكام والشعائر إلى المعاني والحكَم والمقاصد. ما أنفع هذا للقلب! وما أحلى هذه الخلوة التى تعود بالعبد إلى صفاء الإيمان وصدق الصلة. وإلا، (فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)، كما يقول الشيخ، وهو قانون عام وسنة إلهية حكيمة مطردة.

وللعزلة (المؤقتة) فوائد أخرى، أحدها تجنب المعصية، ذلك لأن أغلب المعاصي يتعلق بالبشر والمعاملات مع البشر، فحري بالذي هو معزول عن البشر أن يتجنب المعاصي.

والعزلة أيضاً تدرب المرء على حفظ لسانه من اللغو والباطل، {وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً}. والعزلة تدرب العبد أيضاً على إخلاص النية لله تعالى حيث يتجنب نظر الناس إليه وانشغال قلبه بحديثهم عنه، هذا رغم أن الرياء قد يدخل على المرء ولو كان وحيداً حين يشغل نفسه كثيراً بحديث الناس عنه ونظرة الناس إليه. ولذلك، فالشيخ ابن عطاء الله رحمه الله ورضى عنه يقول في موضع آخر: (ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك). ولكن على أية حال، فالعزلة فيها نوع من التدريب على الإخلاص حين يتوجه المرء بعقله وقلبه إلى الله تعالى وينسى الناس ورأي الناس فيه، له أو عليه.

والعبد إذا ابتغى ما ينفع قلبه ارتقى في معارج الوصول وتقدم في السير القلبي إلى الله. فأحياناً ما ننسى عمل القلب ونركز على عمل الجوارح، مما يعرض القلب للقسوة والغفلة، ويعرّض الرحلة إلى الله إلى صعوبات ومعوّقات. ولكنّ العزلة (المؤقتة) عن الناس والتفكر

في أمر الله عز وجل تأخذ العبد مرحلة بل مراحل في الطريق، فما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

المحطة السادسة

التخلي قبل التحلي

كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مِرْآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهْوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنابَةِ غَفَلاتِهِ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم إن العزلة ودخول (ميدان الفكرة) كما ذكر في المحطة الماضية لها آداب وشروط حتى تؤدي إلى تحصيل الأنوار و(إشراق القلب) – كما يسميه الشيخ في هذه الحكمة، لأنه قبل (التحلي) بالأنوار والفضائل، لابد من (التخلي) عن العيوب والنقائص، حتى تتحقق سنة الله تعالى في تهيئة الفراغ قبل ملء مساحة ما بالجديد.

يقول الشيخ: (ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة، كيف يشرق قلب صور الكون منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته).

ولنتحدث هنا عن ثلاثة معان:

المعنى الأول:
عن إشراق القلب بالنور وعلاقة ذلك بالكون وبالمادة وبالأشياء: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟

المعنى الثاني:
عن الشهوات، كيف ينطلق القلب إلى الله سبحانه وتعالى رغم وجود هذه الشهوات؟ يتساءل الشيخ: أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟

المعنى الثالث:
ويتساءل الشيخ: أم كيف يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ وحَضرة الله هى معية الله سبحانه وتعالى. وهذه (المعية) ليست بدعاً من القول، فقد قال تعالى: {وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقال: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}، وقال: {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، وقال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}، وقال: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}. كل هؤلاء في (معية) الله.

لكن كيف يمكن أن نحقق هذه المعية رغم أن القلب مبتلى بالأكدار الذي يتحدث عنها الشيخ هنا؟ فالأكوان والمادة والحياة والناس والأشياء والشهوات كل هذه تنطبع في القلب كما تنطبع الصورة على المرآة، فتعكر صفاءها. وهذا تشبيه بليغ مفيد عظيم. فإذا افترضنا أن هذا القلب هو المرآة، فماذا في هذه المرآة؟ هل فيه فلان وفلانة والمال والوظيفة والعيال والطعام والسيارة والبيت والدنيا؟ أم أن في القلب نور؟ وأكرر أن هذا لا يعني أن نترك الدنيا والسيارة والمال والعيال والعمل، ليس هذا هو المقصود. وإنما المقصود: ماذا في سويداء القلب؟ هل نرى في القلب نور؟ قال تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَع}. بيت الله عز وجل الذي تعتزل وتختلي فيه لكي تحقق فيه وترى فيه وتتمثل فيه هذا النور الرباني. (ما وسعتني أرضي ولا سمائي)، كما ورد في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى، (وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن). فقلب العبد المؤمن يتسع لنور الله تعالى، بنص الحديث. والنور يمحو الظلمة، وهذه طبيعته.

لكن، كيف يشرق القلب بنور الله تعالى وفي مرآته الأكوان و(الأغيار)؟ وهذا تعبير من تعبيرات أهل السلوك: الأغيار، وهو كل ما هو (غير) الله سبحانه وتعالى. هل هذا هو الذي في قلبك؟ أم أن في قلبك النور والذكر؟

ويتساءل الشيخ: أم كيف يرحل (أي القلب) إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ والشهوات ليست حراماً، فالإسلام ليس ضد الشهوات، ولم يحرم الشهوات، وإنما الإسلام نظّم الشهوات ليس إلا. ليس هناك شهوة خلقها الله تعالى فينا وهي حرام مطلقاً، لأن من سنن الله ومن قواعد الإسلام العامة مراعاة الفطرة والطبيعة البشرية.

فالله سبحانه وتعالى لم يحرم شيئاً جعله في فطرتنا بشكل غريزي، كالطعام والشراب والشهوة والكلام والضحك والطرب للصوت

الحسن، وغير ذلك. وإنما الإسلام ينظم هذه الفطرة، يعني شهوة الطعام تنظم هكذا، وشهوة الشراب تنظم هكذا، وحرم بعض الأطعمة وبعض الأشربة وبعض الأنكحة، وهكذا. والشهوة ليست محرمة في حد ذاتها وليست (خطيئة) في حد ذاتها في الإسلام، على خلاف بعض المعتقدات الأخرى، ولكن المحرم هو بعض أجزائها في ظروف معينة.

والقضية ليست الشهوة، وإنما المشكلة أن تتغلب الشهوة على القلب فلا ينطلق في رحلته إلى الله ويفتتن ويميل. {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا}.

ويتساءل الشيخ: أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ هذه الشهوات تربطك دائماً إلى الأرض وإذا فكرت دائماً في شهواتك، فإنها تبعدك عن الله سبحانه وتعالى، ولهذا لابد أن تخلو العزلة من الشهوة ولو كانت حلالاً. قال تعالى: { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا}. هذا من أحكام الاعتكاف، وهذه -بالمناسبة- هي الآية الوحيدة التي ورد فيها الاعتكاف صراحة في كتاب الله عز وجلّ، ولكنها دليل واضح وأصل محكم في موضوع العزلة الذي نتحدث عنه.

أما سنة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العبادة فقد كان يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، واعكتف في العام الذي قبض فيه عشرين يوماً. وورد أنه صلى الله عليه وسلم قد اعكتف في غير رمضان كذلك، وليس الاعتكاف مقصوراً على رمضان.

ويتساءل الشيخ: أم كيف يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ وهذا تعبير بليغ، يشبه فيه الشيخ الغفلة بالجنابة ويقول إن هذه العزلة هي الاغتسال الذي يطهرك من هذه الجنابة، جنابة الغفلات، فإذا غفلت عن ذكر الله وذكرت غيره سبحانه وتعالى، هذه وحدها تحتاج إلى استغفار وتحتاج إلى تطهر وتحتاج إلى ذكر حتى يجلو الله عز وجل قلبك، وهذا من فوائد العزلة.

لابد إذن أن يكون للمسلم وقتاً مع نفسه، ولا يمكن أن تتذرع بقلة الوقت، فهذا غير مقبول في هذا فالقضية قضية نصف ساعة أو ساعة تخلو فيها بالله سبحانه وتعالى وتتفكر وتذكر. ولذلك فالحكمة التي نتدارسها في الصفحات التالية يقول الشيخ فيها: (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)، فلا تقل إن هذه العزلة أو الخلوة ليس عندي لها فراغ ولو نصف ساعة، فهذه رعونة غير مقبولة.

نسأل الله –عز وجل- أن يطهرنا من جنابة الغفلات، ومن أسر الشهوات، وأن يدخلنا في النور وأن يجعل من فوقنا نوراً ومن تحتنا نوراً ومن أمامنا نوراً وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً وفي قلوبنا نوراً.

المحطة السابعة

اغتنام الوقت

إحالَتُكَ الأعْمالَ عَلَى وُجودِ الفَراغ مِنْ رُعُوناتِ النَفْسِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الحكمة يقول فيها الشيخ: (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)، أي بتعبير آخر: (ليس هناك شيء اسمه ليس عندي وقت)! فهذه الأعمال التي نتحدث عنها من صلاة وذكر وتفكر وعبادة كلها تتطلب وقتاً، ولكن أحياناً يسوِّف العبد أى يقول سوف سوف أو يقول ليس عندي وقت، السنة القادمة إن شاء الله، رمضان القادم، الشهر القادم، الأسبوع القادم، غداً، وهكذا. هنا يقول الشيخ إن هذا من

رعونات النفس، يعني من مراهقة النفس، من عدم الفهم الناضج ومن عدم العقل الناضج، أي من قلة العقل، لماذا؟ لأن الوقت يتسع لكل شيء، إن شاء الله.

ولكن القضية كما يقال بلغة العصر قضية أولويات، يعني أنت تخرج من بيتك وعندك مثلًا عدد معين من الساعات وعدد معين من المهمات فستؤدي الأوْلى ثم الأوْلى من هذه المهمات. تقول مثلاً رقم اثنان أو رقم أربعة أوْلى والبقية تؤجل للغد، و{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}.

ولو كان لديك عشرة دقائق مثلاً وعندك واجبات كثيرة منها الصلاة المفروضة، فالأولى أن تؤدي الصلاة المفروضة. ولكن أحيانًا تأخذ الدنيا الأولوية اليوم، ثم في الغد تأخذ الدنيا أولوية، ثم في الأسبوع القادم تأخذ الدنيا أولوية، ثم في الشهر القادم تأخذ الدنيا أولوية، ويتأجل الدين، أي تقوم فقط بالفرائض، ولعل بعض الناس يقصّر حتى في الفرائض، ويقول ليس عندي فراغ وليس عندي وقت!

وهذا التسويف ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (إن أكثر صياح أهل النار من سوف). هذا التسويف لا ينبغي ولا يصح، وإنما ينبغي للمسلم أن يبادر وأن يستغل الأوقات وأن يستثمر الأوقات.

هذا وإن في الأوقات متسع كبير، والله عز وجل يبارك في الوقت والعمل، إذا استطعت أن تستثمر الوقت وتنظم الوقت بهمة ودأب. وأهمية هذه القضية ليست فقط في إدارة العمل الدنيوي، بل في العمل الديني وفي الأوراد والعبادات كذلك. إذا كان عليك بعض الأوراد من الذكر مثلًا واضطررت للخروج لموعد عمل، فاستثمر وقتك وأنت في المواصلات. أعرف عدداً من الأخوة والأخوات الذين حفظوا كتاب الله في المواصلات بدلاً من الانشغال بالنظر إلى الناس والشوارع.

وفي البلاد المتقدمة نجد الناس دائماً ما يقرأون في وسائل المواصلات. أنا أراجع هذه الفقرة الآن وأنا جالس في أحد قطارات

لندن. القطار مزدحم، ولكنه هادئ تماماً، ولا أكاد أرى حولي أحداً إلا ويقرأ أو يكتب أو يطالع، ولو كان واقفاً! وهذا من حسن استغلال الوقت والعمر. وإذا فعل الناس هذا لدنياهم، فحري بالمسلم أن يحرص على ذلك لدينه.

ولابد أن تترتب الأولويات وأن يؤدي المسلم ما هو أوْلى، وحق الله لا ينبغي أن يضيع. أعلمُ أن من القواعد في شرع الله أن: (حقوق وأمانات العباد أوْلى من حق الله المجرد). ولكن هذا لا يعني كذلك أن تأخذ حقوق وأمانات العباد الساعة تلو الساعة واليوم تلو اليوم حتى آخر العمر. وإنما ينبغي لنا أن نستثمر الأوقات حتى نستطيع أن نؤدي ما ينبغي أن يُؤدى، والتسويف من رعونات نفسي يخدعنا به الشيطان. { حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّا!).

نسأل الله عز وجل أن يعيننا على أن نستغل ونستثمر أوقاتنا فيما يرضيه.

المحطة الثامنة

الصبر على البلاء

لا تَسْتَغْرِبْ وُقوعَ الأكْدارِ ما دُمْتَ في هذهِ الدّارِ. فإنَّها ما أبْرَزَتْ إلّا ما هُوَ مُسْتَحِقٌّ وَصْفِها وَواجِبُ نَعْتِها.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم إن العبد إذا تاب وأناب وتوكل وأخلص وتفكر واغتنم الوقت، بدأ نور الإيمان يتوهج في قلبه وبدأ في رحلة القرب من المولى عز وجل، لأنه كما يقول الشيخ رحمه الله ورضى عنه في موضع آخر: (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك). ولكن العبد قادر على الرحلة وعلى الوصل إذا غيّر نفسه، وعندها: (ما زال عبدي يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها)، و(إذا تقرب عبدي إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً وإذا تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة).

ولكن سنّة الله عز وجل في كونه تقتضي لمن يحبه الله ويقرّبه أن يبتليه! ليس هناك مفر من هذا! {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}، ومثل ذلك في كتاب الله تعالى كثير.

والدنيا لا تساوي عند الله شيئاً، وإنه إذا أخذها أو أخذ بعضها من عبده وأعطاه التوبة والقرب والجنة والآخرة، فما أربحها من تجارة وما أجزله من عوض! ولهذا فإن (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي المرء على قدر دينه)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

ولذلك فإذا تكدّرت الحياة بالقليل من التحديات أو العقبات، فلا ينبغي للعبد أن يستغرب أو يقول أنّى هذا؟! والشيخ هنا كأنه يسألنا: ما اسم هذه الدار؟ والجواب: اسمها (الدنيا). إذن، فإذا أبرزت الأحوال الدنيا والأخلاق الدنيا والطبائع الدنيا والعواقب الدنيا، فلا ينبغي للمرء أن يجزع أو يستغرب، فهذه (الدنايا) كلها مشتقة من اسم الدنيا نفسه!

وهذا التسليم بطبيعة هذه الحياة التى لا تخلو من أكدار يعين العبد على فضيلة أساسية ومحطة رئيسية في رحلته إلى الله تعالى، ألا وهي الصبر على البلاء.

والصبر من أخلاق المسلم التى تجلب له (معية) الله تعالى: {إن الله مع الصابرين}. وهذه الكلمة الجامعة (مع) تعني الكثير، كما مر بنا في حكمة سابقة، ومن كان الله معه فمن عليه!

والصبر - كما هو معلوم- ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء .

أما الصبر على الطاعة فهو أن يلزم المسلم نفسه بالاستمرار في طاعة الله عز وجل حتى ولو شقت، هذا طبعاً دون أن يضرّ نفسه أو يعذبها، فإن الله عز وجل يقول: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}، وإن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى الرجل الذي نذر أن يحج ماشياً قال: (إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه). ولكن الصبر المطلوب على الطاعة هو كمثل حديث النبى صلى الله عليه وسلم عن (إسباغ الوضوء على المكاره)، الذي (يرفع الله به الدرجات ويحط به الخطايا). فإذا وقع العبد في عبادته شئ من هذه الأكدار الخفيفة فلا يستغرب وليستبشر بفضل الله السابغ ورحمته العامة.

وأما الصبر عن المعصية فهو أن يُلزم المسلم نفسه بالبعد والامتناع عن الوقوع في ما حرم الله تعالى. {وراودته التى هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقال هيت لك، قال معاذ الله}. وهذا الصبر أيضاً له ثوابه، ففي مِثل هذه القصة (قصة سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) يقول صلى الله عليه وسلم عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله).

وأما الصبر على البلاء فهو على أنواع، كما فصّل في ذلك أهل هذا العلم، وهى أنواع من (الحبس) والمنع حين يواجه الإنسان البلاء، ألا

وهي: حبس الجوارح عن المعصية، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس النفس عن التسخط بالمقدور.

أما حبس الجوارح عن المعصية فهو شرط لكى يحصل التطهير والتزكية بالبلاء، فالله عز وجل يقول عن المنافقين: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون}، فإذا واجهت الأزمات فأنت في مفترق طرق: إما أن تتوب وتدعو وتتضرع، وبذلك تنجح في الامتحان، وإما أن تطغى وتذنب، وبذلك تفشل وترسب في الامتحان.

والصبر على البلاء يتطلب أيضاً حبس اللسان عن الشكوى وهذا هو (الصبر الجميل) الذي حكى الله عز وجل عنه في قصة يعقوب صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، ولذلك فيعقوب بعد أن قال {فصبر جميل}، قال: {إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله}، أي أنني أشتكي فقط لله سبحانه وتعالى وليس لأحد من خلقه.

وأما حبس النفس عن التسخط بالمقدور فهو أعلى أنواع الصبر، وفيه لا يشتكي العبد باللسان ولا يجزع بالجنان، وإنما تبقى النفس مطمئنة وهادئة ورابطة الجأش ولو في أوج الأزمة. (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، كما قال صلى الله عليه وسلم .

وإن العبد إذا صبر على البلاء وتخلّق بهذه الأخلاق، قطع شوطاً بعيداً ونجح وفاز. {والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.

المحطة التاسعة

إحكام بدايات الأعمال

مِنْ عَلاماتِ النُّجْاحِ في النِّهاياتِ، الرُّجوعُ إلى اللهِ في البداياتِ. مَنْ أَشْرَقتْ بدايَتُهُ أشْرَقتْ نِهايَتُهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

والعبد السائر إلى الله، المتجاوز لمرحلة من العسر والبلاء إلى آفاق من اليسر والسعة، ما يبرح يفكر في الجديد من العمل الصالح الذي يمضي به قدماً في الطريق. وهذه الحكمة تعلمنا سنّة إلهية أخرى، وهي أن إحكام بداية أي عمل توشك أن تضمن إحكام ونجاح نهايته. وأثر هذا في السير إلى الله هو أنه إذا كانت بداية الرحلة مشرقة فالنهاية مشرقة، حسب تعبير الشيخ هنا. ولكن، كيف تشرق البداية؟ تشرق البداية بالرجوع إلى الله عز وجل. وكيف (أرجع إلى الله) في بداية العمل؟

لابد أن يبدأ العمل الصالح بذكر الله، حسب الذكر المناسب لهذا العمل. وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (كل عمل لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أقطَع)، أي ليس فيه بركة. فلابد أن تبدأ العمل باسم الله، وتبدأ الكلام بالصلاة والسلام على رسول الله وبحمد الله تعالى، كما ورد في السنة كذلك، وتبدأ العبادة بالنية، وتبدأ الصلاة بدعاء: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)، وتبدأ الأمور الكبيرة بركعتين استخارة، هذا كله من الرجوع إلى عز وجل في البدايات.

وما الاستخارة؟ حقيقة الاستخارة هي دعاء تدعو: (اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم في هذا الأمر –وتسمى الأمر- خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فيسره لي ويسرني له، وإن كنت تعلم في هذا الأمر –وتسمى الأمر- شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، ثم يسر لي الخير حيثما كان وأرضني به). ومعنى هذا الدعاء هو تسليم وتفويض للأمر إلى الله سبحانه وتعالى، فتستخير بمعنى أن تقول لله سبحانه وتعالى: اختر لي فأنت تدري ولا أدري، وأنت تقدر ولا أقدر، وأنت تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

وهذا نوع من أنواع الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في البدايات، وهو من علامات وضمانات النجاح في النهايات، مهما كانت تلك النهايات في حساباتنا البشرية الدنيوية من المكسب أو الخسارة. (لا خاب من استخار)، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذه الحسابات البشرية لا تعنى شيئاً، وإنما إذا كان هناك رجوع إلى الله عز وجل في البدايات فالحسابات في النهاية ستكون في صالحك مهما حدث، ومهما حسبت، فلعل حساباتك قاصرة.

مثلاً، إن كان الأمر المستخار فيه تجارة، فلعلك تخسر بعض الخسارة في صفقة ما، ولكن لعل الله عز وجل قد قدر هذا حتى يستبدلك بصفقة أو صفقات أفضل، أو لعلك تحتاج إلى الخسارة حتى تراجع نفسك، فتكتشف عيباً في حساباتك، أو تكتسب صديقاً يساعدك، أو تعود إلى أخ وقف في الأزمة إلى جانبك، فيكون النجاح هو في الصفقات الأفضل، أو في مراجعة حساباتك، أو في اكتساب الصديق. {والله يعلم وأنتم لا تعلمون}.

ومقاييس النجاح والفشل البشرية غالباً ما تكون حسابات مالية، أو أرقام، أو إنجازات إحصائية، وكذا. ولكنّ هذه الأشياء لا تعنى شيئاً، لأن الذي يهم هو مرضاة الله عز وجل عنا. فإذا رجعنا إلى الله عز وجل في البدايات فالنهايات ستكون بإذن الله تعالى مشرقة، وسيكون الله عز وجل راضٍ عنك مهما حصل. (من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)، وهذا ينطبق على كل شيء. مثلاً: (شاب نشأ في عبادة الله) كما قال صلى الله عليه وسلم. هذا الشاب أحسن البدايات فأحسن الله له النهايات وأظله في ظله.

والبدايات تشرق كذلك بترك الذنوب ورد الحقوق إلى أصحابها، وبالدخول في الأمور بالعدل والقسط، وهذا مفروغ منه لأننا لا نتكلم عن الوقوع في الحرام، فالوقوع في الحرام من البدايات يؤدي إلى الفشل في النهايات مهما كانت النتائج والأرقام، لأن الحرام سيؤدي إلى الفشل ومحق البركة وإلى حرب من الله ورسوله.

أسأل الله عز وجل لي ولكم حسن الخاتمة، وأسأل الله عز وجل الرجوع إليه في البدايات والنجاح في النهايات. إنه نعم المولى ونعم النصير.

المحطة العاشرة

اكتشاف عيوب النفس

تَشَوُّفُكَ إلى ما بَطَنَ فيكَ مِنَ العُيوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إلى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الغُيوبِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قد تبدأ البداية المشرقة فينتاب الإنسان نوع من الغرور، أو إحساس بأنه متفضل بما يفعل، ويغفل عن أن فيه من العيوب الكثير والكثير. فالشيخ بعد أن يتحدث عن البدايات يقول: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب).

فقد يتصور العبد أنه ببعض العبادات، أو ببعض الراحة في الصلاة، أو مثل ذلك، يتصور أنه أصبح قادراً على أن يتشوف الغيب، وأنه أصبح يمتلك ما عند العارفين بالله سبحانه وتعالى من الفراسة، أي فراسة المؤمن التي تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله). فالشيخ هنا يوجهنا قائلاً: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب).

وإذا ظن العبد أنه ليس في نفسه عيوب، فهو على شفا حفرة من الهلاك، لأن البشر كلهم عيوب، وعلى قدر ما لله تعالى من كمالات على قدر ما للناس من عيوب.

فالله عز وجل هو الكريم والإنسان بخيل: { قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا}، والله عز وجل هو القوى والإنسان ضعيف: {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا}، والله عز وجل هو الرحيم والإنسان يقسو، والله عز وجل هو الحليم والإنسان غضوب، والله عز وجل هو الغفار والإنسان لا يغفر بسهولة، والله عز وجل هو الصبور والإنسان عجول، والله عز وجل هو العليم والإنسان جهول، والله عز وجل هو العدل والإنسان يظلم، وهكذا. فعلى قدر كمالات الله عز وجل على قدر نقصنا وعيوبنا.

فإذا ظن العبد أن ليس في نفسه شيء من العيوب فهو على خطر، بل ينبغي أن يفتش الإنسان عن عيوب نفسه، وهذا فن ينبغي أن يركز فيه المسلم جهده خير من أن يضيع جهده في استشراف الغيوب والمسائل

لا ينبغي أن يصل إليها الإنسان قبل أن ينقى نفسه من العيوب أصلاً. ولن ينقى العبد نفسه من كل العيوب، ولكن ينبغي أن يعمل على تقليلها قدر الطاقة، وهذا العمل وما يجلبه من تواضع هو الذي يرفع العبد ويجلب له المنح الربانية والعلوم اللدنية والمواهب الروحية.

وهناك طرق عرفها العلماء في استشراف العيوب، منها ما يلي:

أولاً: نقد الناس: إذا انتقدك إنسان، فإنه من الصلاح ومن التقوى أن تنظر في هذا النقد، هل في هذا النقد بعض الصدق حتى استشرف وأعرف عن نفسي عيباً من العيوب؟ ينبغي أن تنظر في نقد الناس لك، حتى من يكرهك ويعاديك، وتسأل: هل يدلني هذا النقد على عيب في نفسي؟

ثانياً: الصديق النصوح: ومن طرق التعرف على العيوب الصديق النصوح، ورحم الله عمر –رضي الله عنه- حين قال: (رحم الله امرء أهدى إلينا عيوبنا)، فجعل العيب هدية، بل هو أفضل من الهدية، لأنه من الصعب أن يعرف الإنسان عيب نفسه، فتحتاج المسألة إلى حرارة شديدة وإلى ابتلاء شديد حتى يعترف الإنسان بعيوب نفسه، وينظر في أعماقه بصدق لكي يستشرف عيوب النفس. هذه مهمة صعبة. فإذا أهداك إنسان هذه الهدية، من صديق ناصح، يقول لك: يا أخي أنت فيك عيب كذا وكذا، فينبغي للعبد أن ينظر في نصائح الآخرين ويحاول أن يتعلم عن عيوب نفسه.

ثالثاً: البلاء: وأحيانًا يأتي البلاء فيكشفك، ويفضح بعض عيوبك. قال تعالى: {أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون}. والحديث هنا عن المنافقين، والعياذ بالله، إذ يفتنهم ويمتحنهم الله سبحانه وتعالى، ولكنهم لا يتوبون ولا هم يذّكرون، ولا ينظرون إلى العيوب فيذكروها، ولا إلى الذنوب فيتوبوا منها. إذن، حين تبتلى لابد أن تنظر إلى العيوب في نفسك، لأن البلاء والضغط يكشف العيوب.

نسأل الله عز وجل أن يصلح عيوبنا وأن يسترها ويصلحها، ونسأل الله عز وجل العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

المحطة الحادية عشرة

لوم النفس

أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ؛ الرِّضا عَنِ النَّفْسِ. وَأَصْلُ كُلِّ طاعَةٍ وَيَقظَةٍ وَعِفَّةٍ؛ عَدَمُ الرِّضا مِنْكَ عَنْها.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم إنه بعد أن ينظر المسلم في نفسه ويحاول أن يستكشف عيوبها، لابد أن يتعلم من أين أتت هذه العيوب حتى يحاول أن يتخلص منها. هنا يقول الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله ورضي عنه: (أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها)، أي يحدثنا عن أصل العيوب.

أصل العيوب، التي هي معاصي أو غفلات أو شهوات وأشياء أخرى متعلقة بذلك، أن يرضي العبد عن نفسه، أي يقول: أنا بخير، وأنا مؤمن، وأنا صالح. ولكن الله عز وجل قد أقسم بالنفس اللوامة تشريفاً لها: {لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة}، والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها، فهي نفس لا ترضي عن صاحبها وما تبرح تلومه أبداً.

ونجد أيضاً في كتاب الله تعالى: {وما أبرئ نفسي}، والذي قال هذا هو الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، يقول: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي}. هذا النبي ابن النبي ابن النبي يقول: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء}، فما بالك بنا؟

والنفس اللوامة هي نفس ينجيها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، ولكن النفس التي لا تلوم صاحبها تتصور أنها يوم القيامة سوف تكون بخير: {ولئن رددت إلى ربي لأجدن خير منها منقلبا}، كما قال ذلك الرجل صاحب الجنتين في قصة الكهف، وهو رجل كان راضياً كل الرضا عن نفسه وكان يقول أنه يوم القيامة سوف يجد خيراً من الجنة التى كان يملكها في الدنيا، كل هذا وهو كافر بالله!

ولكن الأصل في دين الله والسنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضي عن نفسك، هكذا علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فكانوا يشكون حتى في إيمانهم. سيدنا حنظلة عرف بعض أسماء المنافقين الكبار الذين كانت أسماؤهم غير معروفة للصحابة، وعرف

هو بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم، فكان عمر يمشي وراء حنظلة ويقول: (أنشدتك الله يا حنظلة أأنا منهم؟). عمر رضي الله عنه يتساءل إذا كان من المنافقين العشرة! لماذا؟ لأنه لم يرضى عن نفسه. وأبو بكر الصديق كان يقول: (لو أن إحدى قدميّ في الجنة ما أمنت مكر الله). ولماذا يقول ذلك؟ لأنه لا يظن أنه يستحق الجنة! هذا أبو بكر الذي إذا (وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمانه)، كما قال صلى الله عليه وسلم.

والرضا عن النفس هو أصل كل معصية، إذا رضيت عن نفسك وظننت أن لك مكاناً خاصاً عند الله سبحانه وتعالى وقعت في المعاصي والتقصير والإهمال والبطالة. أما إذا كنت خائفاً من الله سبحانه وتعالى ولا تظن أن لك مكانة فستتجنب المعاصي.

ويتحدث الشيخ هنا عن (الشهوة) وهو يقصد الشهوات الحرام: الكبر والعجب والبخل والطمع والإدمان والإسراف، إلى آخره. كل شهوة من الشهوات الحرام أصلها الرضا عن النفس. أما إن لم ترض عن نفسك، فستقصر نفسك عن هذه الشهوات، وهذه هي سنة الأنبياء والمرسلين والصالحين.

ولكن ينبغي للمسلم الذي يلوم نفسه ألا يقع في (جلد الذات)، كما نقول في لغتنا المعاصرة. و(جلد الذات) يعني أن نلوم أنفسنا دائماً وبشدة حتى نصل إلى اليأس، يقول المرء: (أنا سيئ، أنا شرير، أنا حقير، أنا ليس فيّ أمل ...)، ثم ييأس، ثم يترك كل شيء، وهذا أيضا سلوك معيب وفهم منحرف.

والتوسط فضيلة بين رذيلتين، كما يقال؛ رذيلة أن يلوم المسلم نفسه دائماً حتى ييأس، ورذيلة ألا يلوم نفسه أبداً حتى يغتر. وبهذا التوسط نتحسن إن شاء الله، ونمشي في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى خطوة إلى الأمام.

المحطة الثانية عشرة

الصحبة الصالحة

لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُهُ وَلا يَدُلُّكَ عَلَى اللهِ مَقالُهُ. رُبَّما كُنْتَ مُسيئاً فَأَراكَ الإحْسانَ مِنْكَ، صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أسوأ حالاً مِنَكَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحلة السلوك مع الله وإلى الله سبحانه وتعالى، تعلّمنا أن ننقب عن عيوب النفس، وفهمنا أن أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، كما يقول الشيخ، وأن أصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها. وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مثل هذه النفس اللوامة التي أقسم الله عز وجل بها.

وهنا يحدثنا الشيخ رحمه الله ورضي عنه عن عيب آخر، ألا وهو سوء اختيار الأصحاب. كيف يختار المؤمن أصحابه؟ يقول الشيخ: (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فربما أراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوء حال منك). إذن، في الصحبة، إما أن تصحب من هو أفضل حالاً منك، أو تصحب من هو أسوء حالاً منك.

يقول الشيخ: إن صحبت من هو أسوء حال منك ظننت أنك محسن، لأنك تقارن نفسك به؛ هذا الذي يرتكب الصغائر والكبائر، ولا يبالي. أما إذا صحبت من (ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله)، أى من هو أعلى منك في الدين، وهنا نتكلم عن الدين ولا نتكلم عن الدنيا، فإن صحبت من هو أعلى منك في الدين، فإنه حرى بهذا الصاحب أن يؤثر فيك تأثيراً جيداً.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح والجليس السيئ كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تشتم منه ريحاً طيبًا، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تشتم منه ريحاً خبيثة)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وإن صحبته الذي يتحلى بالأخلاق الفاضلة وبالدين، فإما أن يعطيك المسك حقيقةً لأن المؤمن طيب الريح، وإما أن يعطيك مسكاً معنوياً، كنصيحة، أو يذكر لك آية، أو كلمة خير، أو بسمة: (تبسمك في وجه أخيك صدقة)، وهكذا. وإما أن تشتم منه ريحاً طيبًا، أي تراه يتصدق، أو يفعل الخير، أو يعبد الله تعالى.

وأما الذي هو كنافخ الكير أو (الحداد)، فإما أن يحرق ثيابك إن اقتربت منه حقيقةً لأنه يدخن مثلاً! وإن اقتربت منه أكثر فلعله يحرق ثيابك ثم يحرق قلبك، أي يعرضك لذنب من الذنوب، كأن يشركك في غيبة، أو نميمة، أو معصية، أو شهادة زور، أو غير ذلك من أنواع المعاصي، أعاذنا الله وإياكم. فإما أن تشتم منه ريحاً خبيثة، وإما أن تراه يقع في الذنوب، فيؤثر هذا في قلبك.

(لا تصحب من لا ينهضك حاله). ومعنى (الحال) وتأثيره ليس بدعاً من القول. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يرشد أصحابه إلى أهمية الحال القلبي وكان ينهض بحالهم رضي الله عنهم كما يظهر بوضوح في أحاديث كثيرة، وهاك بعض الأمثلة:
عن أبي هريرة: قال صلى الله عليه وسلم: (سبق درهم مائة ألف درهم). قالوا: وكيف؟ قال: (كان للرجل درهمان فتصدق بأجودهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها).
فالفارق بين الرجلين هو فارق في الحال القلبي، رغم أن الثاني تصدق بمائة ألف درهم، والأول تصدق بدرهم واحد!

وروى النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح فقرأ الروم فالتبس عليه، فلما صلى قال : (ما بال قوم يصلون معنا لا يحسنون الطهور وإنما يلبس علينا القرآن أولئك). وهذا أيضاً حديث صريح عن (حال) فرد يؤثر تأثيراً سلبياً في المجموع.

وعن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : {أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون}، كاد قلبي أن يطير!

وعن أبيّ بن كعب: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها، ثم دخل آخر قرأ قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما صلى الله عليه وسلم فقرأ فحسّن شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا

إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى ما قد غشيني، ضرب في صدري، فغضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً ...

كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأبيّ: أتشك يا أبيّ؟ وأبيّ هذا كان من الصحابة الذين كتبوا القرآن فيما بعد في عهد جمع القرآن، وكان (رئيس اللجنة) التي أشرفت على هذه العملية، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم في صدره فنقله من حال الشك إلى حال الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه! فقال: (وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً). هنا يصف أبيّ الحال التي نقله النبي صلى الله عليه وسلم إليها في لحظة!

وقد رأيت من مشايخي وأساتذتي من يتكلم بكلمة واحدة فينهض بي أياماً، ولعله لا يقول شيئاً، ولكنه في حال ذكر، أو في حال خشية، أو في حال خضوع لله سبحانه وتعالى، فينقل لك هذا الحال القلبي أياماً، ويقربك من الله سبحانه وتعالى.

ثم يقول الشيخ: (ولا يدلك عن الله مقاله)، فإذا لم ينهضك بالحال دلّك بالمقال، أي نقلك بنصيحة أو بشيء يقوله من أقوال الخير.

نسأل الله عز وجل أن يبعّد عنا الصحبة السيئة ويرزقنا الصحبة الصالحة، ونسأل الله عز وجل أن يرفع ويُنهض الحال والمقال. آمين.

المحطة الثالثة عشرة

الدوام على الذكر

لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضورِكَ مَعَ اللهِ فيهِ؛ لأن غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقظَةٍ، وَمِنْ ذِكرٍ مَعَ وُجودِ يَقظَةٍ إلى ذِكرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوَى المَذْكور، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زلنا في مرحلة التخلية في رحلة البحث عن العيوب ومحاولة تنقية النفس منها، وهذه الحكمة تتناول عيباً من عيوب النفس خطير ومتواصل، وكثيرًا ما نبتلى به في ساعات كثيرة من كل يوم، ألا وهو عيب الغفلة عن الله سبحانه وتعالى، والغفلة عكسها الذكر، فحين تذكر الله عز وجل، فلست بغافل.

قال تعالى: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ}، وقال: {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ}، وقال: {فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ}، وقال: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}، وقال: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ}، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، وقال: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله).

وهذه كلها، وغيرها كثير، توجيهات مباشرة وصريحة في أنه لابد للمسلم أن يذكر الله على كل حال، وكان صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل حال، وكان له دعاء في كل حال صلى الله عليه وسلم، والدعاء نوع من أنواع الذكر لله تعالى.

ونتلو: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب}، لأن الذكر يولد الطمأنينة في النفس حين تحسّ بالقرب من الله. والذكر هو المقصود من العبادة، فقد قال تعالى: {وأقم الصلاة لذكري}، كأن الذكر هو المقصود والهدف من الصلاة. بل إن الذكر أكبر من الصلاة أي في النهى عن الفحشاء والمنكر، {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}، والذكر أكبر من الصلاة لأنه أصل الصلاة والهدف من الصلاة.

لكن الشيخ هنا يحدثنا عن شيء يحدث أحيانًا في الذكر ويعتريه؛ أن تذكر الله فلا تحسّ بالذكر في قلبك، والسؤال هو: هل نترك الذكر حين لا يستحضر القلب أم نواصل الذكر حتى مع عدم حضور الذهن والقلب؟

يقول الشيخ في هذه الحكمة: (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، فعسى أن ينقلك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، {وما ذلك على الله بعزيز}).

الشيخ يقول: إن لم تحس وتستحضر الذكر في قلبك، واصل الذكر حتى مع وجود هذا النوع من الغفلة، مثلاً أن تقرأ القرآن ولا تحس أنك تتفكر فيه لأن ذهنك مشغول، أو أن تذكر الله سبحانه وتعالى ولا تحس فعلاً بالتسبيح، أو التحميد، أو التهليل، في هذه الحالة: لا تترك الذكر بل استمر في الذكر، لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك فيه، فعسى -أي المرجو والمأمول من الله سبحانه وتعالى بمحض كرمه وفضله وعفوه ومنّه- أن ينقلك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، أي أقل درجات الذكر هي الذكر مع وجود يقظة، يعني ألا تكون نائماً، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما يقولون}، فعسى الله عز وجل أن ينقلك إلى اليقظة، أن يفيقك من السكرة التي تأخذك عن الذكر الحقيقي، أي سكرة الدنيا، وسكرة الانشغال بالأشياء وبالأغيار، وأن يأخذك الله سبحانه وتعالى إلى اليقظة، ثم يأخذك إلى مرحلة أخرى أعلى، وهى الحضور.

فالشيخ يقول: (ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور)، والحضور أعلى من اليقظة أي يستحضر العبد الذكر، تذكر الجنة فتستحضرها، تذكر النار فتستحضرها، تذكر الله عز وجل فتستحضر عظمته، وتستحضر نعمته في عقلك وقلبك وشعورك وإحساسك.

هذا الاستحضار في القلب الذي وصفه سيدنا علي –رضي الله عنه- في تلك الخطبة الشهيرة التي وصف فيها المتقين، والتي قال فيها:

(فإذا مروا بآية فيها تخويف ظنوا أن شهيق النار وزفيرها في أصول آذانهم)، يعني: يمرون بآية فيها ذكر النار، فكأنهم يسمعون صوت النار. (وإذا مروا بآية فيها تشويق تطلّعت قلوبهم إليها)، أي كأنهم ينظرون إلى الجنة، فلا يبعد على كرم الله تعالى أن ينقلنا من هذا الذكر الذي فيه غفلة إلى ذكر فيه يقظة، ومن ذكر فيه يقظة إلى ذكر فيه حضور كحضور هؤلاء الصحابة حين يحسّون ويسمعون الغيب البعيد من جنة أو نار.

ثم قال: (ومن ذكر فيه حضور إلى ذكر فيه غيبة عما سوى المذكور). فقد يذكر الإنسان الله عز وجل فلا يحس بشئ إلا هذا الذكر ولا يشعر بما حوله، وهذه نسمة من النسمات الرحمانية الربانية التي إذا تعرض لها الإنسان مرة في اليوم أو في الأسبوع، فهو خير كثير لا يوصف، أن تحسّ باستغراقك التام في المعنى وما وراء المعنى، تحس بالغيبة عن الدنيا.

وهذا الكلام ليس له علاقة بهؤلاء الناس الذين يدّعون إنهم لا يرون شيئاً أبداً إلا الله، وأن الدنيا قد غابت، ... إلى آخره. هذا من الشطحات التى لا يعلم إلا الله مقدار صدقها. ولكننا نتكلم عن نسمة تهب عليك تحس فيها بالغيبة عن ما سوى المذكور سبحانه وتعالى، فتذكر صفات الله سبحانه وتعالى مثلًا، فتذكر نعمته عليك، وتحس بالتقصير، وتحس بجوده وكرمه سبحانه وتعالى فيأخذك هذا المعنى تماماً حتى عن النعمة نفسها إلى المنعم، ويأخذك من الرحمة إلى الرحمن، ومن القوة والجبروت في خلق الكون مثلًا إلى الجبار القوي، ومن الأكوان إلى المكوّن.

{وما ذلك على الله بعزيز}، أى أن هذا يتوقف على رحمته وفضله تعالى، كما تعلّمنا في الحكمة الأولى ألا نعتمد على العمل مهما صلح في هذا الأمر وأن نركن إلى الرجاء فيه تعالى. ذلك لأن الله عز وجل هو الكريم، وهو الذي يرزقنا هذه الرحمات، وهذا الذكر الراقي، وهذا الحضور الثمين من محض كرمه وفضله عز وجل لا بأعمالنا ولا بشيء نستحقه، وإنما هو من محض فضله سبحانه وتعالى، والمسألة لا تحتاج إلى شيء أكثر من الرجاء في رحمة الله سبحانه وتعالى.

فنسأل الله عز وجل أن يرزقنا هذا الذكر وأن ينعم علينا بدوام الذكر، وبتمام الذكر، وبالشكر، وحسن العبادة. نسأل الله عز وجل أن ينقلنا من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عن ما سوى المذكور سبحانه وتعالى، {وما ذلك على الله بعزيز}.

المحطة الرابعة عشرة

الحرية من الذل والطمع والوهم

ما بَسَقَتْ أغْصانُ ذُلٍّ إلّا عَلى بِذْرِ طَمَعٍ.
ما قادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الوَهْمِ. أنْتَ حُرٌّ مِمّا أنْتَ عَنْهُ آيِسٌ. وَعَبْدٌ لِما أنْتَ لَهُ طامِعٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

التخلية قبل التحلية تمر بالبحث عن عيب خطير قد يقدح في الإيمان نفسه، ألا وهو الذلّ لغير الله تعالى، ولأن (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)، فالشيخ يعطينا تحليلاً لأسباب هذا العيب ويوجهنا الى كيفية التخلص منه.

والسبب المباشر لأن يذل الإنسان نفسه للناس هو الطمع فيما في أيديهم. والشيخ يعبر عن هذا في عبارة رقيقة يقول فيها: (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع)، أي أن بذرة الطمع الصغيرة تروى بالأقوال والأفعال التى يحاول بها أن يحقق بها الطامع أهدافه، فيزداد ذلاً، وتكبر وتبسق شجرة الذل الخسيسة.

ثم يقول: (ما قادك مثل الوهم، أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع)، فالطمع يولد عبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وهذه هى الخطورة. ولكن، ما سبب هذا الطمع؟ وما سبب العبودية والذل لغير الله سبحانه وتعالى؟ الشيخ يشرح هنا أن الوهم هو السبب، فقال: (ما قادك مثل الوهم). ولكن ما هذا الوهم الذي يتحدث الشيخ؟

الذي طمع فيما في أيدي الناس يتوهم أن الناس ينفعون أو يضرون، يتوهم أن هذا الرئيس أو المدير أو الغني أو القوي أو ذا النفوذ سينفع أو يضر، فيطمع فيذل لغير الله تعالى. ولكنّ الناس لا ينفعون ولا يضرون، والله عز وجل هو النافع الضار. فالذل هنا مصدره الطمع، والطمع مصدره الوهم في الحقيقة.

والشيخ يقول: ما قادك مثل توهم أن الناس ينفعون أو يضرون. صحيح أنك لابد أن تتعامل مع الناس، أو تسأل الناس أن يصنعوا لك شيئاً أو يقدموا لك معروفاً. هذا سؤال مشروع وليس فيه ما يخالف الأدب مع الله تعالى إذا لم يكن هو سؤال الطمع الذي ينبت الذل لغير الله، وهو نتيجة الوهم في أن الناس ينفعون أو يضرون.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (سلوا الحاجات بعز الأنفس)، فمن الطبيعي أن تسأل الحاجات، ولكن إن سألت الناس معروفاً أو حتى صدقة، لابد أن تسأل بعزة نفس، تسأل وأنت لست في حالة من ذل ولا طمع. لا ينبغي أن تزرع بذرة من الطمع، ثم ينمو الذل ويبسق كما تبسق الشجرة، حتى يصير عميقاً متأصلاً، ثم يتحول إلى عبودية لغير الله والعياذ بالله.

لكنك إن حررت نفسك من الوهم أن العبد ينفع أو يضر، نجوت. وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس وهو صبي قائلاً: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك).

والحرية الحقيقية هي: العبودية لله، هذا هو تعريف الحرية في الرؤية الإسلامية للحياة، فإذا كنت عبداً لله سبحانه وتعالى فأنت حر مما سواه، أنت حر من البشر، أنت حر من أي ضغوط اجتماعية، أو اقتصادية، أو نفسية، أو مالية. أنت حر من كل هذا لأنك (حر مما أنت عنه آيس)، وآيس يعني يائس أي مما في أيدي الناس. فإن صح إيمانك ورجاؤك في الله، يئست من أن الناس سوف ينفعوك أو يضروك، وصرت عبداً حقيقياً لله سبحانه وتعالى، لا ذل ولا طمع ولا وهم.

هذا وقول الشيخ رحمه الله رضى عنه بأنه (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع) يتحقق أيضاً في الطمع فيما عند الله والذل لله، فالطمع فيما عند الله يؤدي إلى الذل له سبحانه وتعالى، ويؤيد العبودية لله تعالى. وهذه هي الحرية الحقيقية، أن تستعبد نفسك لله عز وجل فقط لا سواه عن طريق الطمع فيما عنده والذل له، واليأس من النفع والضر من سواه.

وكلما طمعت فيما عند الله كلما تذللت له، وكلما وقفت بالباب، واعتمدت على خالق الأسباب، وألصقت الوجه بالتراب، وتوجهت إليه سبحانه وتعالى بهذا الطمع الذي يولد الذل، وهذا الذل الذي يولد العزة.

إذن، (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع) نفهمها بشقين:

الشق البشري الذي تطمع فيه فيما في أيدي الناس وهذا وهم؛ لأن النافع الضار هو الله سبحانه وتعالى، وهذا ينبغي أن نخلّص النفس منه لأنه يؤدي إلى العبودية والذل لغير الله تعالى.

والشق الآخر هو الطمع فيما عند الله سبحانه وتعالى والوقوف بباب الله عز وجل مع الذل الذي يولد العبودية، ولكن ما أحلاها من عبودية، وما أرقاها من عبودية، وما أعلاها من حرية، تلك التي تتمتع بها حين تتعبد لله سبحانه وتعالى بهذا المعنى، فإذا صرت عبدا لله حقا فأنت حر مما سواه وأنت عزيز مما سواه، وأنت مرتحل إليه حقاً.

المحطة الخامسة عشرة

الشكر على النعم

مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فقدْ تَعَرَّضَ لِزَوالِها، وَمَنْ شَكَرَها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها.
ومَنْ لَمْ يُقْبِلْ عَلى اللهِ بمُلاطَفاتِ الإحْسانِ قِيْدَ إلَيْهِ بسَلاسِلِ الامْتِحانِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

من سنن الله سبحانه وتعالى التي يُجري بها الرزق، كل أنواع الرزق، أن شكر الله على النعمة يزيد النعمة نفسها أو يستبدلها بما هو أفضل منها. قال عز من قائل: { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ}، وهو قانون عام وسنة ماضية.

وإننا لن نستطيع أن نعدّ النعم كلها عدّاً فضلاً عن أن نشكرها كلها! والله عز وجل يقول في محكم كتابه: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}. ولكن ينبغي على المسلم على أي حال أن يجتهد في أن يشكر الله سبحانه وتعالى على ما ينعم عليه من نعم.

ثم يقول تعالى: {وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد}، والكفر هنا هو كفر النعمة، وهو ليس الكفر الذي يعني عدم الإيمان، بل الكفر هنا هو أن يقصّر العبد في الشكر. وهذا عيب آخر يتحدث عنه الشيخ في هذه الحكمة البليغة.

يقول الشيخ: (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)، فالذي يشكر النعم يقيدها إليه حتماً لأن وعد الله بالمكافأة على الشكر وعد صادق، وهو كأنه ضمان يأتي مع النعمة، ولكن الضمان هذا يتطلب منك عملاً تؤديه، وهو أن تشكر النعمة.

والشكر لا يكون فقط بقول: (الحمد لله)، ولكن الشكر يكون أيضاً عن طريق العمل. قال تعالى: {اعملوا آل داود شكراً}. والشكر بالعمل يقتضي الأسئلة التالية: ماذا فعلت بهذه النعمة؟ هل وضعتها في حلال؟ هل ساهمت بها أو بجزء منها في معروف أو غرض صالح؟ أم وضعتها في حرام واستخدمتها في حرام أو منكر؟ وفي هذه الحالة، والعياذ بالله، العمل نفسه هو كفر بالنعمة.

إذن، إن لم تشكر النعم بالقول والعمل فقد تعرضها للزوال. (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها قيدها بعقالها).

ثم يقول الشيخ رحمه الله: (من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)، ذلك أنك إن لم تشكر النعم وتقبل على الله تعالى حتى تصل إلى درجة الإحسان، يمتحنك الله سبحانه وتعالى حتى يمنحك فرصة أخيرة لكي تصل إلى هذه الدرجة.

إذن، يمتحنك الله لكي يُرقيك ويزكيك، ولكي تتضرع فيتوب عليك. قال تعالى: {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون}، فحين يمتحنك الله بشيء فالأولىَ بك أن تستكين وأن تتضرع وتدعو. ويقول عن المنافقين: {أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون}.

وحين يمتحنك فهو لا يريد أن يعذبك أو يتعبك، وإنما يريد منك أن تعود إليه، وأن تبدأ في عدّ النعم التي أنعمها عليك، وتبدأ في شكر حقيقي باللسان وبالعمل.

والله سبحانه وتعالى حين يبتليك بفقدان بعض النعم إنما يبتليك بمس من العذاب فكل منا لديه ملايين، لا بل مليارات لا تعد من النعم. أنا عندي مليارات من النعم لا أستطيع حتى أن أعدها، وحين يبتليني الله بفقد نعمة، أو اثنتين، أو حتى خمسة، أحسّ وكأنني في أزمة شديدة، ولكن الحقيقة هى أن عندي ملايين ومليارات من النعم الآخرى التي يغدقها عليّ كل لحظة.

ففي كل خلية نعمة، وفي كل ثانية نعمة، وفي كل نَفَس نعمة، وفي كل نظرة نعمة، وما لا يحصى من النعم. فالله هو المستحق للشكر سبحانه مهما حدث. أضف إلى ذلك أنه حين يبتليك بفقدان نعمة أو اثنين فهو –بتعبير الشيخ– يقيّدك إليه، أي يردك إليه رداً جميلاً، فيأخذ منك نعمة بسيطة حتى تعود إليه وتتوب إليه، وحتى تتذكر وتتفكر، فإذا تبت إلى الله وتذكرت وعدت فإن الله سبحانه لا يبتليك إلى الأبد. {فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً}، ولاحظ هنا أنه كررها الله سبحانه وتعالى، وفي الآية الأخرى: {سيجعل الله بعد عسر يسرا}، وهذا وعد صادق فأحيانًا تتعسر الأمور، ولكن يأتي الله سبحانه وتعالى باليسر مع العسر، ويأتي باليسر بعد العسر كذلك.

فعندما تحدث مشكلة أو مصيبة يأتي مع المشكلة اليسر، أي في وسط الأزمة تجد اليسر، بل نفس لحظة العسر يأتي اليسر معه! فإن كان هذا اليسر هو مزيد من القرب من الله تعالى فهذه نعمة، فربما يعطيك الله سبحانه وتعالى الامتحان فتتقرب منه، ويصير هذا الامتحان لا شيء في مقابل المكسب الذي حققته بقربك من الله، وبسؤال نفسك: كم عندي من النعم!؟ فأعود إلى الله سبحانه وتعالى وأتوب، واستصغر في جنب رحمته وفضله ونعمه وآلائه هذه النعمة التي فقدتها، وهذا الكدر الذي أصابني، وأضع الأشياء في نصابها الحقيقي، وفي هذه الحالة يرفعك الله سبحانه بهذا الابتلاء ثم يرفع البلاء عنك.

وإن أردنا أن نتجنب هذا كله، فلنقبل على الله عز وجل بالإحسان والشكر. ولكن هذا لن يحدث دائماً أبداً، لأننا بشر ضعفاء لا نستطيع أن نشكر الله وتعالى على كل شيء، فأحيانًا نقصر، بل كثيراً ما نقصر! (كل ابن آدم خطّاء). ولذلك، فالله عز وجل يجبر كسرنا ويقوي ضعفنا ويصلح من شأننا بالابتلاء الذي دائماً ما يأتي معه اليسر، وبعده.

أدعو الله عز وجل أن نكون ممن يتذكر ويعود ويتوب، ونسأل الله عز وجل أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

المحطة السادسة عشرة

فهم العطاء والمنع الإلهى

رُبَّما أعْطاكَ فمَنَعَكَ وَرُبَّما منَعَكَ فأعْطاكَ. إن فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء. إنَّما يُؤلِمُكَ المَنْعُ لِعَدَمِ فهْمِكَ عَنِ اللهِ فيهِ. رُبَّما فتَحَ لَكَ بابَ الطّاعَةِ وَما فتَحَ لَكَ بابَ القبولِ. وَرُبَّما قضى عَلَيْكَ بالذَّنْبِ فكانَ سَبَباً في الوُصولِ. مَعْصِيَةٌ أورَثَتْ ذُلاً وافْتِقاراً خَيرٌ مِنْ طاعَةٍ أوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْباراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يعطيك أحيانًا، ويمنعك أحيانًا أخرى. يبتليك بالخير أحياناً وبالشر أحيانًا أخرى، بالسراء أحيانًا وبالضراء أحيانًا أخرى، بالنعمة أحيانًا وبالحرمان منها أحيانًا أخرى. ولكنّ الأمر على حقيقته قد يختلف عن ما أظن أنا أنه خير أو شر أو نعمة أو نقمة!

في هذه المرحلة من الرحلة إلى الله، هناك ضرورة لحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى في عطائه ومنعه، لأن الأمور قد لا تكون كما تبدو ظواهرها. نقرأ قوله تعالى: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ. كَلَّا}. (كلّا): أي أن الله عز وجل يقول إن هذا ليس هو الفهم الصحيح لاتساع الرزق أو ضيق الرزق.

إن قدَر الله عليك الرزق، فهذا لا يعني أنه يهينك، وإن نعَّمك وأغدق عليك بعض الرفاهية فهذا لا يعني أنه يكرمك، ولا يعني بلوغ المكانة الرفيعة، بل العكس قد يكون صحيحاً. والسؤال الآن هو: كيف نحكم في هذا الأمر؟

ينبه الشيخ على معني هام في هذه الحكمة، وهو معني (الفهم). يقول: (إن فتح الله تعالى لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء). فإن منعك أو أخذ منك الله عز وجل شيئاً من المال، أو الوظيفة، أو الصحة، أو الأهل، أي أخذ منك شيئاً هاماً وغالياً، ولكنه في نفس الوقت قد فتح لك باباً للفهم، أي باباً للعبرة والتفكر والنضوج والقرب من الله - إن حدث ذلك فما حدث ليس منعاً، بل هو عطاء وهدية، وعندها تتحول المحنة إلى منحة!

وبالفهم عن الله عز وجل، تعرف أن ما يحدث من بلاء هو عين العطاء، لأنك قبل الفهم كنت تنظر إلى المادة، وإلى الحواس الخمس، وإلى الأرقام، فتقول مثلاً: (قد خسرت عشرة آلاف)، أو (ذهب كذا من أهلي أو صحتي أو من متاع الدنيا)، إلى آخره.

ولكنّ ذلك هو الحساب المادي، والله عز وجل قد يأخذ منك العشرة آلاف ولكنه يعطيك فهماً، ويعطيك رضى، ويعطيك عملاً صالحاً، ويعطيك همة عالية لتغيير حالك، وقد يعطيك صديقاً وفياً يقف معك، وقد يعطيك استكانة له سبحانه وتعالى ودعاءً وقرباً وتوكلاً عليه سبحانه وتعالى فتكون خسارة هذه العشرة آلاف هي عين العطاء وعين المنحة. بل وقد يعطيك بدلاً منها مائة ألف مثلاً في وقت لاحق نتيجة مراجعتك لنفسك وتحسينك لمسلكك.

لابد إذن من أن نحسن الفهم عن الله سبحانه وتعالى، ولابد أن تعتدل الموازين حتى نفهم ما هو المنع وما هو العطاء. لأنه أحيانًا نتصور أن شيئاً ما منع، ويكون هو عين العطاء. ونتصور أن شيئاً ما عطاء، ويكون هو عين المنع.

والمثال بالعكس صحيح، فقد يعطي الله سبحانه وتعالى إنساناً عشرة آلاف ابتلاء له، فلا يشكر الله عليه بالقول ولا بالعمل، ويغتر بالمال، ولعله يصرفه في الحرام، وتكون العاقبة سيئة، والعياذ بالله. ولعل الله عز وجل يُمْلي لهذا الإنسان: {وأملي لهم إن كيدي متين}، والعياذ بالله. فالله عز وجل أحيانًا ما يفتح الأبواب عقوبة، {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}. ولابد للعبد العاقل أن يخاف من هذا.

إذن، إذا حدث لك انفتاح في الرزق، أو انفتاح في شيء تطلبه، لابد أن تفهم عن الله سبحانه وتعالى. أولاً، أن تشكر الله سبحانه وتعالى حتى تقيد النعمة إليك، كما مر. وثانياً، أن تحاول أن تفهم الحكمة والمعنى وراء هذا العطاء، وأن تحذر من ما فيه من فتنة.

ويضرب الشيخ هنا مثالاً آخر في نفس المعنى. يقول رحمه الله: (ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك الذنب فكان سبباً في الوصول).

هنا يعطيك الله تعالى الطاعة أو العبادة أو العمل الصالح، صليت القيام، أو حفظت القرآن، أو تصدقت، أو صمت، أو حججت، وهذا

فتح من الله سبحانه وتعالى. لكن احذر! فأحيانًا تتخيل أن العبادة نفسها في حد ذاتها عطاء وما هى بعطاء، لماذا؟

مثلًا، قد يبطل العبد ثوابه بنفسه بعد أداء العمل. فمثلاً، قال تعالي: {الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم}. فالمنّ والأذى يبطل الصدقة ويسدّ باب القبول والأجر.

وقد يكون هناك طاعة ولكن سوء أداء العبد لهذه الطاعة نتج عن رياء مثلاً: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}، وإذن تؤدي هذه الطاعة إلى عقوبة، والعياذ بالله، لأن المقصود من الطاعة هو الإخلاص فيها والانتفاع بها خلقياً وروحياً. فإن حدثت الطاعة ولم يحدث الإخلاص أو لم يتم الانتفاع بها روحياً وخلقياً، فلا قيمة لها. ولذلك، ففي الحديث أنه: (من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه)، أي أن صيامه غير مقبول ومردود عليه، والعياذ بالله.

ثم يعطينا الشيخ مثلاً آخر في باب الطاعة والمعصية مما يتطلب دقة في الفهم. يقول الشيخ: (وربما قضى عليك الذنب فكان سبباً في الوصول)، وفي هذا المعنى يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: (رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً فأدخلت صاحبها الجنة، ورب طاعة أورثت صاحبها عجباً وكبراً فأدخلته النار).

والمعصية في حد ذاتها لا تدخل أحداً الجنة طبعاً، ولكنها قد حدثت بالفعل وحدثت التوبة، ويذكر العاصي ذنبه باستمرار ولا ينساه، بل يجتهد ويجدّ حتى يدخل الجنة. وهذا المعنى من معاني العطاء والمنع. أحيانًا تكون معصية، ولكنها معصية تاب العبد منها وتورث الذل والانكسار لله سبحانه وتعالى، فتصبح منحة وتصبح عطاء.

وهذا لا يعني أن أذهب وآتي المعاصي ثم أقول: حتى ينكسر القلب ويتوب، هذا فهم خاطئ منحرف انزلق إليه بعض الجهال. ولكنني أتحدث عما سبق وحدث من المعاصي في الماضي، أن تورث هذه المعاصي الذل والانكسار لله سبحانه وتعالى. ولعل ذلك أفضل من

طاعة تورث العزة والاستكبار: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، كما قال صلى الله عليه وسلم. فإن كانت ثمة طاعة، ولكنها أورثت فاعلها الكبر، فعدمها أفضل. فلابد إذن أن ننظر إلى مدى القرب والبعد من الله عز وجل، وأن يكون هذا هو المعيار.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). وهذا الحديث يدل على أنك أنت الذي تصنع الخير أو الشر لنفسك في الحقيقة، والأمر بيدك أنت! إن استقبلت السراء بالشكر فهو خير، وإن استقبلت الضراء بالصبر فهو خير، وإن استقبلت السراء بالكبر والمعصية فهو شر، وإن استقبلت الضراء بالضجر والكفر فهو شر، فأنت الذي تحدد: عطاء أم منع، حسب ردّ فعلك أنت.

(ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك). فأحسن الفهم عن الله عز وجل في عطائه ومنعه، فهذه ضرورة للسالكين إلى الله سبحانه وتعالى وللمتخلقين مع الله تبارك وتعالى بأخلاق الإحسان: أن تدرك أن العطاء والمنع في يدك وفي قلبك، والعطاء والمنع يكون حسب رد فعلك، فالله تعالى دائما يعطيك، ودائما ما يعرضك إلى ما هو خير، وهو دائما ما يحسن الاختيار لنا في كل الأحوال. والأمر إلينا! وهذا في حد ذاته من نعمه ولطفه وجميل كرمه معنا: أن يجعل أمرنا كله خير. {بيدك الخير إنك على كل شئ قدير}.

نسأل الله عز وجل حسن الفهم عنه، وحسن الفهم فيما يعطينا وفيما يمنعنا، وصلى اللهم على سيدنا محمد.

المحطة السابعة عشرة

الأنس بالله والدعاء له

مَتى أوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فاعْلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الأُنْسِ بهِ. ومَتى أطْلَقَ لِسانَكَ بالطَّلَبِ فاعْلَمْ أنَّهُ يُريدُ أنْ يُعْطِيَكَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا مثال آخر خاص بالفهم عن الله تعالى في عطائه ومنعه، يعلمنا إياه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله ورضي عنه. يقول: (متى أوحشك من خلقه فأعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به)، فأحيانًا يأتي البلاء في صورة أن يستوحش الإنسان أي ينعزل وينفرد، مثلاً بأن يأخذ الله عز وجل الرفيق، كالصاحب أو الزوج أو الأخ أو الصديق، أو أن يسافر العبد لظرف ما ويبقى وحده في مكان بعيد أو بلد غريب، أو تجد نفسك فجأة وحدك في سجن أو مستشفى، لا قدر الله.

يبين الشيخ أن هذا قد يكون من العطاء في صورة المنع، وهذا أيضا مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (إذا أراد الله بعبد خيراً أوحشه من الناس). فيفتح الله لك في هذه الوحدة باب الذكر أو باب التفكر أو باب الأنس به، وهذا الأنس لم يكن ليأتي وأنت تختلط بالناس ليل نهار، فيفتح لك سبحانه وتعالى هذا الباب بأن يحبسك في مكان ما، ولعلك تظن أن هذا من المنع وإنما هو من العطاء، أوسع عطاء.

ومن أساتذتي من يذكر فترات من حياته كان فيها في السجن أو في منفى، يذكرها بالخير ويقول: (لولا ذلك السجن لما ألفت كتبي ولا وصلت إلى أفكاري). فكان السجن والوحشة في الحقيقة سبباً للأنس بالله والنفع للخلق.

ثم يقول الشيخ: (ومتى سألت فأعلم أنه يريد أن يعطيك)، أي قد يبتليك الله عز وجل بلاء لا ترى له حلاً إلا أن تسأل وتدعو، فلعلك مقصّر لا تسأل ولا تدعو كثيرًا قبل هذا البلاء، ولعلك تتوهم أنك لا تحتاج إلى الدعاء، أو تدعو ولكن لا تكون مضطراً. فأحيانًا يجد الإنسان نفسه مضطراً، ويجد الإنسان نفسه في ضيق لا ملاذ له ولا كاشف له إلا الله، وأخيراً يدعو ويسأل الله عز وجل. {أمّن يجيب المضطر إذا دعاه}.

ولعل هذا السؤال يستمر أياماً أو أسابيع، ويكون هذا من العطاء وليس من المنع، لأن (الدعاء مخ العبادة)، كما قال الحبيب صلى الله عليه وسلم، وفي رواية: (الدعاء هو العبادة)، فتظل في عبادة صادقة وصلة دائمة بالمولى عز وجل، ويكون هذا هو عين العطاء وليس من المنع في شئ.

ولكن، يقول الشيخ: (إن فتح لك باب السؤال فأعلم أنه يريد أن يعطيك)، فالله عز وجل يثيب على السؤال في حد ذاته، ويعطي كذلك ويجيب السؤال كذلك في الدنيا أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معاً، أو في شيء آخر أفضل في الدنيا أو في الآخرة؛ فالله عز وجل حين يفتح لنا باب الدعاء فإنه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا، لأن العبد الكريم إذا سُئل لابد أن يعطي، فما بالك بالله!

وأحيانًا ما يضيّق الله عز وجل عليك الرزق، ويريد منك أن تتوب، ليس إلا. {أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذّكرون}، {ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون}. فالله عز وجل أحيانًا يأخذك ببعض البلاء وبعض الضرر حتى تتوب إليه، وتستكين، وتدعوه وأنت تحس بالاضطرار، وهذا أيضاً من صور المنع الذي هو في حقيقته عطاء، فالبلاء والفتنة اللذان ينتهيان إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى هما نعمة حقيقية.

والمنع والعطاء لا يقاسان بمقاييس البشر، فلن تكون المقاييس الصحيحة هي مقاييس الأرقام ومقاييس اللذّات المادية، وإنما المقياس الحقيقي هو علاقتك بالله. فأحيانًا يبتليك الله ابتلاء فتتحسن العلاقة معه سبحانه وتعالى، وهذا هو عين العطاء، وأحيانًا لا تأتي منح من الله تعالى إلا عن هذا الطريق، لأنني مثلاً قصّرت في حق الشكر أو حق العبادة، فالله تبارك وتعالى يأخذ من مليارات النعم التي أعطاني إياها يأخذ مني نعمة أو اثنتين أو ثلاثة، وقد أجزع، ولكنني أعود إليه سبحانه وتعالى، وهذه هي المنحة أي منحة، وعطاء أي عطاء!

المحطة الثامنة عشرة

الارتقاء في مقامات الأداء

لمّا عَلِمَ الحَقُّ مِنْكَ وُجودَ المَلَلِ، لَوَّنَ لَكَ الطّاعاتِ. وَعَلِمَ ما فيكَ مِنْ وُجودِ الشَّرَهِ فَحَجَرَها عَلَيْكَ في بَعْضِ الأوْقاتِ، لِيَكونَ هَمُّكَ إقامَةَ الصَّلاةِ لا وُجودَ الصَّلاةِ، فَما كُلُّ مُصَلٍّ مُقيمٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة التي بين أيدينا تتعلق بموضوع هام من مواضيع السلوك إلى الله سبحانه وتعالى وهو ما يسميه أهل هذا العلم بالمقامات أو المنازل، أي المستويات المختلفة التى يسير فيها العبد في ممارسة العبادات.

أولاً، قد يفقد العبد كل مقامات الأداء في العبادة ويحدث الملل. والله عز وجل علم أن من طبيعتنا وجود الملل. ولذلك فمن رحمته ومن عظمة شرعه أن لون لنا الطاعات، فتستطيع أن تعبد الله عز وجل بطرق كثيرة. مثلاً، الصلاة طريق ثابت للتعبد لله تعالى خمس مرات فقط في اليوم والليلة. ولكن من رحمة الله عز وجل أن شرع لنا ألواناً وأبواباً من نوافل الصلاة: كصلاة الليل، وصلاة الشكر، وصلاة الحاجة، وغير ذلك.

وإذا حدث ملل، يقتصر العبد على فرائض الصلاة ويصوم، مثلاً. وإذا كان لا يريد أن يتنفل ولا أن يصوم غير رمضان ولكنه متحمس للصدقة، أو الجهاد، أو العمرة، أو التعليم والتعلم، أو الإحسان للجار وذي القربى (فوق ما يجب من فرائض)، أو يساعد الناس بجهده أو وقته أو عقله أو قلمه أو دعائه، فكل هذه ألوان من الطاعات والقربات إلى الله الكريم.

فالناس يختلفون، والتنوع من سنن الله فيما خلق. والتنوع ليس فقط في القدرات، ولكن أيضًا في قدرة الشخص في الاستمرار في الأداء فقد تحب صلاة النوافل، ولكن إن صليت ليل نهار دون توقف مللت. ولذلك يشير الشيخ هنا إلى أن الله قد علم منا الشَرَه أي إرادة الاستمرار دون توقف، فحجر الله تعالى علينا العبادات في بعض الأوقات حتى لا نفعل ذلك، لأن (المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)، فمكروه علينا أن نصلي مثلًا بعد الشروق، أو قبل الزوال أو بعد العصر، وذلك حتى نشتاق إلى الصلاة، فالصلاة -أي النافلة- ليست مسنونة في كل وقت، مما يجعلنا نشتاق إليها. فتترك الصلاة بعد العصر مثلاً وتنتظر إلى المغرب حتى تتنفل. وربما فتح لك باب

الصوم، ولكنه حجره عليك في بعض الأوقات لنفس الحكمة، فيحرم علينا أن نصوم قبل رمضان مباشرة، وأول أيام العيد، وهكذا.

وإذا فتح الله عز وجل لنا باب قراءة القرآن قد يرغب المرء رغبة غير واقعية أن يقرأ القرآن أبداً لا يتوقف! ولكن يكره شرعاً أن تقرأ القرآن وأنت راكع أو ساجد في صلاتك، أو في الخلاء، أو في حالة الجنابة، فالله عز وجل علم منا طبيعة الملل البشرية، وعلم منا اختلاف القدرات، فنوّع ولون لنا الطاعات كرماً وفضلاً منه سبحانه وتعالى، وعلم منا كذلك وجود الشَرَه أو المغالاة فحجر علينا بعض العبادات في بعض الأوقات، وهذا من رحمته سبحانه وتمام نعمته وكمال دينه وحكمة شرعه.

ثم إذا فتح الله على العبد لوناً أو باباً من أبواب العبادة، لابد أن يحسنها ويرتقي في مقامات أداءها. وضرب الشيخ المثال بالصلاة فقال: (وإنما طلب منك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فما كل مصل مقيم). فالله عز وجل حين تحدث عن الصلاة أمرنا بإقامتها: {وأقيموا الصلاة}، وإقامة الصلاة غير وجود الصلاة، فإقامة الصلاة: أن يكون فيها الخشوع: {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون}.

والفارق بين وجود الصلاة وإقامتها هو أن تخشع في الصلاة، والخشوع هو حكمة تجنب الصلاة (النافلة) في حالة الملل أو حالة الشَرَه لأن الخشوع لا يتحقق في هاتين الحالتين.

والخشوع (علم) في مصطلح أهل التصوف، وكونه علم هو مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم حين تكلم عن أشراط الساعة كما روى أبو الدرداء: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرون منه على شئ، ثم قال: إن شئت حدّثتك بأول علم يرفع، أول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً.

ولنضف كلمات عن الخشوع أذكر نفسي وإياكم بها، فقد قال العلماء من أهل هذا العلم إن الخشوع على ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولي: الذل: وهو أن تصلي وتستشعر الذل لله سبحانه وتعالى، وهذا يظهر في الحركات والسكنات فنحن لا نركع ولا نسجد إلا لله، لأن ذلك من مظاهر الذل، والذل لا يكون إلا لله عز وجل، والذل يقتضي أن ترى في نفسك الضعف والعجز، وترى في نفسك الفاقة والفقر، وأن الله عز وجل هو القوي، وهو الغني، وهو القدير، فيحدث الذل. والذل أيضاً ينتج عن الطمع، كما مر معنا في الحكمة التى يقول فيها الشيخ: (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع). فالطمع فيما عند الله ينتج الذل له.

المرتبة الثانية: الخوف: والمرتبة الأعلى من الخشوع أن ينتقل العبد من الذل إلى الخوف من الله تعالى وعظمته وجبروته وعقوبته، فينتقل الحال من الذل بين يدي الله إلى حال الخوف من الله سبحانه: {إذا ذكّروا بآيات ربهم خروا سجداً وبكياً}، وهذا هو مقام الخوف، والخوف قد يفيض فيحدث البكاء. {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد}. وعن مطرف عن أبيه: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وفي صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء.

المرتبة الثالثة: السرور: وأفضل خشوع في الصلاة أن تجد نفسك مسروراً وفرحاً بمعية الله تعالى في صلاتك، فتقرأ القرآن وتسبح وتحمد وأنت فرح ومنبسط ومستنير، وهذا مقام عالٍ من مقامات الخشوع، قد تتنزل فيه السكينة والملائكة.

فعن أسيد بن حضير أنه بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده، إذا جالت الفرس فسكت فسكنت، فقرأ فجالت، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، ولما أخّره رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فلما أصبح حدّث النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: أشفقت يا رسول الله أن تطأ

يحي وكان منها قريباً، فانصرفت إليه ورفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا والله، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم.

وعن البراء: كان رجل (ولعله البراء نفسه) يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال: (تلك السكينة تنزلت للقرآن).

وحين ينقلك الله عز وجل إلى مقام فرح ونور، فهذا من فضله ورحمته المحضة، وليس بعملك، ولكن الأسباب التي يمكن للعبد أن يأخذ بها حتى يرتقي في هذه المقامات هى التدبر فيما يقرأ من معاني القرآن، ومحاولة تحصيل هذا الخشوع لله سبحانه عن طريق استحضار المعاني التي تتعلق بالذل أو بالخوف أو بالفرح، وقد تتداعى المعاني إلى المعاني، وقد يسعد العبد بنفحة من الكرم الإلهى تنقله من حال إلى حال.

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال

فتنتقل بفضل الله تعالى من الذل إلى الخوف، ومن الخوف إلى الفرح والسرور، أي من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان.

وهذه المقامات الثلاثة تتعدد أشكالها في أشكال العبادات المختلفة وليس فقط في الصلاة:

فالإسلام هو العمل الظاهر، أن تؤدي الصلاة فتركع وتسجد، وتؤتي الزكاة فتعطي المال، وتصوم رمضان فتمتنع عن الطعام والشراب، وتحج البيت فتطوف وتسعى وتنحر.

ولكن الإيمان هو ما وقر في القلب، وإذا وقر في القلب أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أدى ذلك إلى أن تكون الصلاة أكثر من الركوع والسجود، بل الخشوع

والخوف والفرح، وتكون الزكاة أكثر من إعطاء المال، بل الرحمة بالفقير والزهد في الدنيا، ويكون الصوم أكثر من الكف عن الشهوات، بل الذكر والشكر والتفكر، ويكون الحج أعلى من مجرد الطواف والسعي إلى تذكر الآخرة والسير في طريق الرسل والأنبياء، وهكذا.

ثم إن الإحسان أن تعبد الله في كل هذه الأحوال كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذه المقامات الثلاثة تتجلى في الصلاة، ففي هذه المقامات الثلاثة المقابلة من مقامات الخشوع مقام الذل الذي هو بالجسد ويظهر في الحركات، ثم مقام الخوف وهو بالقلب، ثم مقام الفرح وهذا مقام من مقامات الإحسان لله تبارك وتعالى.

ونفس المقامات تتجلى في غير الصلاة من الطاعات والقربات. فحين تحدث الشيخ عن الذكر قال: (عسى أن ينقلك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور).

وهذه أيضًا هي نفسها المقامات الثلاثة المذكورة. فمقام اليقظة هو مقام الإسلام، ويقتضي أن تتيقظ لما تتلو من قرآن أو ذكر. ومقام الحضور: هو مقام الإيمان وهو أن يحضرك المعنى فتخاف من الله سبحانه وتعالى. ثم، إن مقام الغيبة عن سوى ما تذكر: هو مقام الإحسان، وفيه تغيب الدنيا من ذهنك، ولا تستحضر في قلبك إلا الله.

ومن الصحابة رضى الله عنهم من كان إذا صلى لا يحس بشيء، وقد رُوي عن عبد الله بن الزبير أنه كان يصلي فيخشع في صلاته فلا يتحرك حتى يقف الطير على رأسه يحسبه جذع شجرة. وروي أيضًا عنه رضي الله عنه أنه كان يصلي يوماً فوقع حائط من منزله فلم يتحرك، وفزع الناس. ثم إنه بعد الصلاة سئل عن ذلك، فأخبر الناس أنه لم يحسّ ولم يسمع بالجدار حين وقع! أي أنه رضى الله عنه كان يُستغرق تمامًا حتى يغيب البيت ويغيب الناس.

فعسى الله سبحانه وتعالى أن ينقلنا بمنِّه وفضله في هذه المقامات من مقام الذل إلى مقام الخوف منه سبحانه وتعالى، ومن مقام الخوف إلى مقام الفرح والسرور، أي من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، فهو وليّ ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المحطة التاسعة عشرة

الاضطرار والفقر إلى الله

ما طَلَبَ لكَ شَيْءٌ مِثلُ الاضْطِرار، وَلا أسْرَعَ بالمَواهِبِ إلَيْكَ مِثلُ الذِّلَّةِ والافْتِقار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة التى بين أيدينا تتناول الدعاء؛ ولكن ليس آداب الدعاء ولا فقه الدعاء، وإنما تتناول حال الدعاء، أي الحال القلبي للمسلم حين يسأل الله تعالى من فضله حتى يكون دعاء مستجاباً بفضل الله تعالى.

والله عز وجل يسأل الكفار في كتابه العزيز: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟}، فالله عز وجل يُشهد الكفار على أنهم حين يضطرون في دعائه له سبحانه فإنه يجيبهم! فإذا كان دعاء المضطر الكافر يستجاب من الله سبحانه وتعالى نظراً لما فيه من الصدق والحرارة والتسليم بالقدرة الإلهية، فما بالك بالمضطر المؤمن؟

الاضطرار إذن يسرع باستجابة الله للدعاء، ولذلك فإن الشيخ في هذه الحكمة التي نتدارسها يقول: (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار). أنت مضطر وترفع يديك لله عز وجل، وتحس بالحاجة الشديدة، ويؤيد ذلك انقطاع الأسباب أحيانًا، كما مرّ.

وهذا ينطبق أيضًا على المسائل العبادية، فأنا مضطر إلي مغفرة الله عز وجل ورحمته، وأحسّ بهذا الاضطرار حين أسأله أن يفتح عليّ من مغفرته ورحمته وفضله. إذن حتى في أبواب العبادات وأبواب المناجاة، ليس هناك شئ أسرع بالطلب مثل أن يشعر المسلم بالاضطرار والفقر والتعلق بمحض الرحمة الإلهية.

ونرى هذا الحال في دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة، ونذكر منها مثلاً غزوة بدر، حين رفع يديه صلى الله عليه وسلم حتى سقط الرداء عن كتفيه وحتى رؤي بياض إبطيه، أي أنه رفع يديه عاليًا، قائلاً: (اللهم إن تهلك هذه العصابة –يعني المجموعة– لن تعبد بعد اليوم)، ورفع يديه صلى الله عليه وسلم ودعا دعاء طويلاً! هذا دعاء المضطر، هذا الذي يسرع إليك بالاجابة.

ثم يشرح الشيخ أحوالاً أخرى مفيدة في الدعاء. قال: (ولا أسرع إليك بالمواهب مثل الذلة والافتقار)، أي أن تتذل إلي الله عز وجل، وتحس بالفقر له. قال بعض العلماء في قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء}، قالوا: هذه تنطبق أيضًا على من يحس بالفقر ويطلب من الله تعالى العون، وهو تأويل بعيد، ولكن المعنى صحيح لأنه إذا كان الإنسان الفقير يحق عليك له الصدقة؛ فما بالك إذا أظهرت لله عز وجل فقرك وهو سبحانه وتعالى الكريم، بل الأكرم، فإذا أظهرت له الفقر وأظهرت الذلة وأظهرت الخشوع فإن الله عز وجل يكرمك ويعطيك ما تسأل أو أفضل مما تسأل.

وقوله: (ولا أسرع بالمواهب إليك)، لأن الله عز وجل هو الذي يمنحنا المواهب، دنيوية أو دينية، لكن الشيخ إنما يقصد المواهب الدينية بالأساس، كالحال القلبي والطاعات والقربات.

وصحيح أن للدعاء شروط وفقه، وهي أن تتوجه إلى القبلة، وألا تدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ويستحب أن ترفع يديك عند الدعاء، وتبدأ بالحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأفضل منه أن تتوسط وتختم بالصلاة على النبي كذلك، هذا من فقه الدعاء؛ ولكن الحال أبعد من الفقه، فهو يتعلق بالحال القلبي الذي هو أساس للدعاء وليس فقط من (المستحبات).

ففي أحكام الإسلام هناك ظاهر وهناك باطن (هذا دون أن ندخل في متاهات من سُمّوا بالباطنية، والذين أساءوا استغلال المعاني الباطنية لتعطيل وتبديل الظواهر والفقه والشرع). فالظاهر هنا هو هذا التوجه إلي القبلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ورفع اليدين، إلى آخر آدب الدعاء التى تعلمناها من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما الباطن فهو أن تشعر بالدعاء وتشعر بالفقر والحاجة والذل والاضطرار إلى الله تعالى ، وهذا كما يظهر أيضاً في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان له دعاء حين يستيقظ، وحين ينام، وحين يضع ثيابه، وحين يخلع ثيابه، وحين ينظر إلي المرآة، وحين

يغتسل، وحين يجتمع مع أهله، وحين يرى الهلال، وحين يصبح، وحين يمسي، وحين يخرج، وحين يدخل، وكان له دعاء في كل حال، فيعلمنا أن نرتبط دائمًا بالله عز وجل بالدعاء.

ولكنك إذا تتبعت تاريخ الدعاء –إن صح التعبير- لا تجد أحدًا قبل محمد ولا بعد محمد صلى الله عليه وسلم قد دعا ربه بمثل هذا، ولا الأنبياء قبله. لا تجد في الزبور ولا التوراة ولا الإنجيل مثل هذه الأدعية الكثيرة المتنوعة التي تظهر حجم وعمق هذه العلاقة بين هذا العبد المصطفى المجتبى صلى الله عليه وسلم وبين ربه سبحانه وتعالى، يدعوه في كل شيء، في أصغر شيء وفي أكبر شيء، وبمنتهى الخشوع والتفويض والإدراك لقدرة المدعو سبحانه.

ويظهر أيضاً من السنة أنه قد صاحب هذا الدعاء اضطرار وشجون قلبية. فعن عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبيت فيناديه بلال فيغتسل، ثم يخرج فيصلى فأسمع بكاءه. فلم يكن هذا الدعاء النبوي الكريم مجرد كلام ظاهر لا يتعلق به حال باطن، وإنما كان الاثنين معاً في أعلى وأسمى الصور.

ومن إجابة الدعاء ما يكون في الآجل ويكون أفضل من العاجل، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد يثاب يوم القيامة على دعاء لله لم يستجاب، يقول صلى الله عليه وسلم: (حتى يتمنى العبد أن لم يُستجب له دعاء قط)، يعني: أن تتمنى يوم القيامة أن الله عز وجل لم يستجب لك أبداً حين ترى أن الذي لم يجبه لك في الدنيا قد أخره لك يوم القيامة في صورة درجات هي أفضل من الدنيا وما فيها.

وحين لا يستجيب لك في الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى يحسن لك الاختيار. وهل عودك إلا حسن الاختيار؟ وهو الذي يقول عن نفسه سبحانه: {بيدك الخير}، أي أنه عز وجل دائمًا ما يحسن لنا. فإن دعوت بشيء ولم يستجب لك فاعلم أنه يختار لك الخير، ولا يختار لك الشر أبداً. ولأنه أذن لك بالدعاء، فاعلم أنه يريد أن يعطيك، كما يقول الشيخ هنا.

وهذا العطاء يكون إما في هذه الدنيا أو في الآخرة. فلنترك الاختيار له سبحانه وتعالى، فـ {ربك يخلق ما يشاء ويختار}، ودائمًا ما يختار أفضل مما نختار، في العاجل والآجل.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا حسن الأدب في الدعاء له سبحانه، وأن يرزقنا الاضطرار في الدعاء له سبحانه، حتى نسلك في هذا الدعاء طريق الذلة والافتقار بين يديه سبحانه، وأن يثيبنا على دعائنا في الدنيا وفي الآخرة، إنه سميع مجيب الدعاء.

المحطة العشرون

اليقين والزهد

لَوْ أشْرَقَ لَكَ نورُ اليَقينِ لَرَأيتَ الآخِرَةَ أقرَبَ إلَيْكَ مِنْ أنْ تَرْحَلَ إلَيْها، ولَرَأيْتَ مَحاسِنَ الدُّنْيا وقدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الفَناءِ عَلَيْها.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يمكن أن أمضي في رحلة إلى الله ناسياً رحلتي إلى الآخرة! لا ينبغي للعبد أن ينسى الموت، وهو الحقيقة الوحيدة التي اتفق على وجودها كل البشر، الأولون منهم والآخرون، والمؤمنون منهم والكفار. لا ينبغي للعبد أن يصبح ويمسى وهمّه الدنيا، وينسى نهايتها.

والنبي صلى الله عليه وسلم قد حذرنا من أن نهتم كثيراً بالدنيا؛ وليس هذا طبعًا من باب أن ننسى الدنيا، فنتركها للكفار بدعوى التفرغ للآخرة. هذا فهم منحرف. لكنّ المقصود هو أن لا ننسى الآخرة. قال صلى الله عليه وسلم: (من أصبح والدنيا همه، شتت الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ومن أصبح والآخرة همه، جمع الله عليه شمله، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة).

فحين تفتح عينيك في الصباح، راقب نفسك وسلها: أين همي؟ وفيم أفكر؟ أفي الآخرة؟ وفي ما بيني وبين الله سبحانه وتعالى؟ إذن، يجعل الله الغنى في قلبي ويكفيني ويرضيني، بل وتأتيني الدنيا وأنا زاهد فيها.

أما إذا أصبحتُ وهمي الدنيا، بمعنى أنني ما أن أفتح عينيّ في الصباح حتى أفكر في فلان أو فلانة، أو مكسب كذا، أو أي أمر من أمور الدنيا ولو كان حلالاً، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن من يفعل ذلك: (جعل فقره بين عينيه)، يعني أنه لن يرضي أبدًا مهما كسب وحقق، بل يحس دائماً أنه في جرى مستمر وفقر مستمر!

وفي حديث آخر يتوعد الله ابن آدم الذي ينسى الآخرة في لهاثه في طلب الدنيا بقوله: (سلطتُ عليك الدنيا تجرى فيها جرى الوحش فى البرية، ثم لا يصيبك منها إلا ما قد كتبته لك)، يعني أن يصحو الإنسان فينطلق فى الدنيا كأنه الأسد الجائع يذهب للبحث عن الطعام، فيجري ويلهث ولا يصيبه من الرزق في النهاية إلا ما قد كتبه الله عز وجل له. ولن يملأ أكثر من بطنه، أليس كذلك؟

إذن، قضية الآخرة قضية هامة لا ينبغي أن تغيب عن ذهن المؤمن. ولكن كيف نصل إلى التفكير في الآخرة؟ وكيف نستحضر الآخرة؟ يربط الشيخ التفكير في الآخرة بقضية اليقين فى الله سبحانه وتعالى، قائلاً أنه كلما زاد اليقين كلما زاد همك بالآخرة، فيوجز ذلك في حكمة يقول فيها:

(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها).

فالشيخ يربط تحقق اليقين بقضية تذكر الآخرة ورؤيتها كأنها حقيقة مشاهدة، والسؤال: كيف نصل إلى اليقين؟ والجواب في كتاب الله تعالى: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}، فكلما عبدتَ الله عز وجل بكل أنواع العبادة، كلما ازداد اليقين فى قلبك، وكلما تذكرتَ الآخرة وكأنك تعيش فيها، وهكذا كان حال صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانوا يتدارسون ويتعبدون مع النبي صلى الله عليه وسلم، وفى الحديث أن أحد الصحابة رضى الله عنهم قال عن أثر تلك العبادة: (كأننا نرى الجنة والنار رأي العين).

إذن قضية العيش فى جو الآخرة، تتعلق باليقين (لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها)، أي أنك لا تحتاج إلى الموت حتى تبدأ في معايشة الآخرة، بل تعيش في الآخرة وأنت في الدنيا وهذا أنفع وأولى قبل فوات الأوان، أليس كذلك؟

وهنا أيضًا أكرر أنه ليس معنى هذا أن ننعزل عن الدنيا ونترك الدنيا، فهذا فهم خاطئ يؤدي إلى ممارسة مغلوطة لقضية تذكر الآخرة، والتى لا ينبغي أن تعني نبذ الدنيا، بل هى مسألة قلبية وعبادة روحية. والفهم المتوازن يوازي بين الدنيا والآخرة، ويعنى أن تسعى في الدنيا وتذهب وتروح وتجيئ وتكسب، ولكن لابد أن يكون لك نصيب من العيش في الآخرة، وهو التفكير فى الآخرة (ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك).

ثم يقول الشيخ رحمه الله ورضى عنه: (ولرأيت الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها). وكِسَفَة الفناء أي ثوب الفناء أو كسوة الفناء أو

غطاء الفناء، وكأن الدنيا في حالة فناء مستمر. كما قال أحد الصالحين: (يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومك ذهب بعضك). فيقول الشيخ أنك لو أيقنت بالآخرة لرأيت الدنيا تزول وتتلاشى أمامك، وفي هذا ما يزهدك فى الدنيا وفي ملذاتها ويقربك من الآخرة ومن العبادة، وهذا مطلوب لأننا كثيراً ما ننسى الآخرة وننسى الموت.

وقد رأي النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة يمدحون رجلًا ويقولون هو كذا وكذا، فقال صلى الله عليه وسلم: (كيف ذكره للموت؟)، أي هل يذكر الموت؟ قالوا: لا نعلم له ذكراً للموت، قال: (ليس هناك)، يعني هو ليس بهذه المنزلة العالية إن لم يكن يذكر الموت ومعروف بذكره للموت؛ لأن ذكر الموت هو الذي يجعلك تستعد للآخرة، وذكر الموت من قضايا اليقين.

وحينما نعيش مع القرآن بهذه الروح ونتذكر الآخرة، ينصلح الحال فى الدنيا؛ لأن ذكر الدنيا فقط والهم في الدنيا فقط هو فى الحقيقة ضياع للدنيا وللدين معاً، وأما إذا ذكر الإنسان الآخرة فهذا يصلح الدين ويصلح الدنيا، {من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة}.

ولا مانع من السعي للدنيا والفرح بالدنيا، على أن تكون الدنيا في أيدينا وليس في قلوبنا، وهذا هو التعريف الصحيح للزهد: أن تكون الدنيا في يدك والآخرة في قلبك. أما إذا كنت تعيش في الآخرة فقط وليس لك نصيب من الدنيا، فأنت أولاً مقصر في حق الدين والإسلام والمسلمين، وأنت ثانياً عرضة للفتنة لأنك زاهد في الدنيا لعدم قدرتك على تحصيلها، لا لرغبتك في ما عند الله في الآخرة.

نسأل الله تعالى أن نحقق هذا التوازن وأن يعيننا عليه، ونسأل الله عز وجل أن يذكرنا الآخرة وأن يعيننا على العمل لها، وأن ينجينا وإياكم من أهوالها برحمته ومنّه وفضله سبحانه.

المحطة الحادية والعشرون

التعامل مع مديح الناس

النّاسُ يَمْدَحونَكَ لِما يَظُنُّونَهُ فيكَ، فكُنْ أنْتَ ذاماً لنَفسِكَ لِما تَعْلَمُهُ مِنها. أجْهَلُ النّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقينَ ما عِنْدَهُ لِظَنِّ ما عِنْدَ النّاسِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وإذا قطع العبد مراحل في الطريق إلى الله، فسوف يتعرض لابتلاء آخر، وهو مدح الناس له لما يظنون فيه من خير! وهذه الحكمة تجيب على السؤال التالي: كيف يتصرف المسلم مع مديح الناس له حتى لا يفتن؟

والمدح من الناس خطير. ولذلك لما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يمدح أخاه قال له: (قطعت عنق أخيك). والنبي صلى الله عليه وسلم قال كذلك: (إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب).

ذلك لأن المدح قد يصرف العبد عن العمل لله تعالى إلى العمل للناس، ابتغاء المزيد من المدح أو تجنباً للذم، وهو خطير. والمدح أيضاً قد يثبّط العبد إذا أحسّ أنه يحسن أيما إحسان وأنه فعل الكثير من الخير الذي استوجب مدح الناس له، وهو أيضاً خطير. والمدح قد يصرف الإنسان عن النظر إلى عيوبه إلى النظر إلى محاسنه ومآثره، وهو خطير كذلك.

ولذلك، فالشيخ فى هذا التوجيه يقول: (الناس يمدحونك لما يظنون فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها)، هم يمدحونك بالظن فيظنون فيك كذا وكذا، ولكنك أنت تعلم من نفسك علم اليقين أن فيك عيوباً شتى، ولاحظ أن الشيخ وهو يتحدث عن البدايات قد أوصانا بالبحث عن عيوبنا وقال: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب). إذن، إذا مُدح العبد لابد أن ينظر إلى عيوبه ويذم نفسه، ويستحى من الله أن ينسب الناس إليه ما ليس فيه، ويسأل الله عز وجل أن يغفر الذنوب ويستر العيوب.

ويذكرنا هذا بسيدنا على رضي الله عنه وأرضاه حين وصف الصحابة رضي الله عنهم في خطبته الشهيرة في (صفة المتقين) حين قال: (إذا زُكِّيَ أحدُهم خاف مما يقال له، يقول: أنا أعلم بنفسى من

غيرى، وربى أعلم بى من نفسى، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون).

فالصحابة رضي الله عنهم كما يصفهم لنا على رضي الله عنه كان إذا مدح أحدهم يرد فوراً قائلاً: (أنا أعلم بنفسي من غيري)، أي أنا أعلم نفسي علم اليقين وغيري يظن فيّ ظنًا، وهو نفس المعنى الذي صاغه ابن عطاء الله في هذه الحكمة. ثم يقول: (وربى أعلم بنفسي مني)، أي أن ربي أعلم بعيوبي وذنوبى وأخطائى حتى من نفسي. ثم يدعو العبد ربه عز وجل قائلاً: (اللهم اجعلنى خيرًا مما يظنون)، فهذا ظن هم يظنونه، ولكن اجعلني خيرًا من ذلك، (واغفر لي ما لا يعلمون)، لأن الله عز وجل يستر علينا أشياء، إلا من رحم الله سبحانه وتعالى، مما لا نحب ولا نستطيع أن نعلن بين الناس.

وأحيانًا ما يكون المدح عاجل الثواب، والعياذ بالله، أي أن الله عز وجل يعاقب الإنسان بهذا المدح باعتباره قد استلم ثوابه على العمل الذي ابتغى به المدح وليس وجه الله تعالى، وهو رياء.

يقول الشيخ: (المؤمن إذا مُدح استحيا من الله سبحانه وتعالى أن يذكره الناس بما ليس فيه. فأجهل الناس من يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس). أأترك اليقين الذي أعلمه من نفسي أن فيّ من العيوب كذا وكذا، وأُصدّق الناس فيما يقولون بالظن؟ هذا من علامات الجهل والغرور لا محالة.

هذا، وإن المدح أحيانًا يكون عاجل بشرى، لا عاجل مثوبة، يعني أن يأتي الناس فيمدحونك ويقولون: (جزاك الله خيرًا لولا أنك فعلت كذا وكذا لم يكن كذا)، وهذا فضل كبير أن يشهد الناس لك بالخير. وقد ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أنتم شهداء الله في الأرض)، وورد عنه أيضاً عن بعض المدح: (هذا من عاجل بشرى المؤمن). وعندئذ، ينبغي أن يستبشر العبد فيحمد لله، ولكن لا ينبغي للعبد أن يأخذه العجب بنفسه، أو يصدق ما يقال حقيقة وينسى عيوب نفسه.

نسأل الله عز وجل السلامة، وأن يبصرنا بعيوبنا، وأن يرزقنا التواضع، وأن يبشرنا في هذه الدنيا وفي الآخرة {لهم بشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة}.

المحطة الثانية والعشرون

الرحمة مع المخطئ

من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه

بسم الله الرحمن الرحيم

وحين يزداد العبد نضجاً ووعياً وعلماً، قد يجد نفسه في مواقف وحوادث يطلّع فيها على أسرار العباد وعيوبهم ومشاكلهم وخفايا نفوسهم. ويحدث هذا سواء بالتوسم أو بالتوثق أو حتى بأن يجد العبد نفسه طَرَفاً أو حَكَماً في خلاف أو صراع ما، على مستوى الأفراد أو الأسر أو الجماعات أياً كانت.

وهذا الاطلاع على أسرار الناس ونقاط ضعفهم هو نوع من السلطان عليهم، حُق بالعبد السائر إلى الله تعالى أن يتعامل معه بما هو أهله من التعامل. يقول الشيخ رحمه الله ورضي عنه: (من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه).

أولاً، لابد من أن يحذر العبد أن ينصّب نفسه قاضياً أو جلاداً على خلق الله أو أن يتصور أنه يقيم العدل بين البشر! بل الذي ينبغي أن يستحضره العبد ويتخلق به في هذا المقام هو (الرحمة)، ليست الرحمة البشرية فحسب بل (الرحمة الإلهية)، حسب تعبير الشيخ رحمه الله ورضى عنه.

و(الرحمة الإلهية) هذه تقتضي أولاً: الستر على عيوب الناس، فالله عز وجل هو الستّار الذي يستر على الخلق عيوبهم، وفي الحديث عن الشاب الذي زنى ورآه مولاه ففضحه، فقال له صلى الله عليه وسلم: (بئس ما صنعت بهذا الغلام، هلّا سترته بثوبك)!

ولذلك فمن كبائر المعاصي أن يطّلع العبد على أسرار وخطايا وعيوب الخلق فيفضحهم ويؤذيهم، و(من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) كما بشّر بذلك الحبيب صلى الله عليه وسلم.

ثم إن الرحمة الإلهية بعيوب الناس تقتضي -ثانياً- أن توجّه الناس إلى الخير، وتداوي العيوب وتعالجها بالقول البليغ والموعظة والنصيحة الرقيقة. وكان هذا هو تصرف الحبيب صلى الله عليه وسلم حتى مع

المنافقين الذين أطلعه تعالى على بعض ما في قلوبهم، وطلب منه أن يوجههم: {أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً}.

والله عز وجل نفسه يعظنا ويوجّهنا بالقول البليغ ويأمرنا برفق في كلامه الذي أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ورد في الحديث القدسي عن العاصين قول الله تعالى: (فإن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم). هذه هي الرحمة الإلهية التي ينبغي أن نتخلق بها.

والتعامل كطبيب مع أمراض الناس يقتضي كذلك أن يتدرّج الطبيب في إعطاء الدواء، وأن يحاول أنواع مختلفة من الأدوية حتى يصل إلى أنجعها، وألّا يبادر إلى الجراحة أو البتر أو الكيّ إلا إذا لم يكن هناك بُدّ. (آخر الدواء الكيّ)، كما ورد في الحديث.

ثم إن الرحمة الإلهية تقتضي أن يتحرر العبد من مصالحه الشخصية في التعامل مع المعلومات والأسرار التي يسمعها أو تصل إليه. فمعرفة عيوب الناس -كما أسلفت- تمنح نوعاً من السلطة التي يمكن للأحمق أن يستغلّها من أجل أن يتحكّم في الناس ويسخّرهم لمصالحه الأنانية وأهدافه الخاصة. ولكنّ (الرحمة الإلهية) تقتضي ألا يفعل العبد ذلك وأن يتجرّد من مصالح نفسه ويبتغي فقط الإصلاح والتوفيق.

والعبد إذا لم يتخلق بالأخلاق المذكورة عرّض نفسه للفتنة، وهي فتنة التسلط والكبر والغرور والحقد وسوء الظن، وكل ذلك خطير ومدمّر.

والعبد إذا لم يتخلق بالأخلاق المذكورة وقع في ظلم كبير للناس المعنيين بالأمر، وهو ذنب لا يمر دون عقوبة في الدنيا والآخرة. ولذلك يقول الشيخ: (كان اطلاعه فتنة عليه وسبباً لجر الوبال إليه). وهذا الكلام هو مصداق لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من ذنب أسرع عقوبة من الغبن)، أي الظلم. نسأل الله السلامة.

هذا، والأصل في هذا الباب كله قول الله تعالى: {ولا تجسسوا}، إلا أن العبد إذا وجد نفسه أمام أسرار العباد لسبب أو لآخر فينبغي له أن يتخلق (بالرحمة الإلهية) كما يقول الشيخ، وإلّا كان السير للوراء بدلاً من أن يكون قُدُماً في طريق الله.

المحطة الثالثة والعشرون

شهود فضل الله وتقصير العبد

إذا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الرَّجاءِ فاشْهَدْ ما مِنْهُ إلَيْكَ. وَإذا أَرَدْتَ أنْ يَفْتَحَ لَكَ بابَ الخَوفِ فاشْهَدْ ما مِنْكَ إلَيْهِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

يلتمس السالك إلى الله قلبه أحياناً فلا يجده! ويحاول أن يستشعر شيئاً نحو الله فتحول بينه وبين ذلك غفلات القلب وشهوات النفس. والشيخ هنا يدلنا على بابين يمكن أن نفتحهما عن طريق العقل، وهو الآلة التي يمكن أن نستعملها في أي وقت بفضل الله ورحمته الواسعين. هاذان البابان هما باب الرجاء وباب الخوف.

والسؤال الذي يجيب عنه الشيخ هنا هو: كيف يمكن أن ينفتح لي باب الرجاء وأن لا أستشعر هذا الرجاء في قلبي حقيقة؟ وكيف يمكن أن ينفتح لي باب الخوف وأنا لا استشعر هذا الخوف في قلبي حقيقة؟ والجواب: أجر إحصاءً وجرداً للنعم التي منّ الله عليك بها، وإحصاءً وجرداً آخر للطاعات والقربات التي تقدمها إلى حضرته سبحانه.

فأما النعم فلا يمكن أن تحصيها على أية حال: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}، ولكنك كلما تذكرت نعمة من نعم الله تعالى عليك، أدركت وشعرت كم هو كريم، وكم هو حليم، وكم هو رحيم، وكم هو جواد. وإذا استغرقتني هذه المعاني، فسينفتح لي باب الرجاء في عطاء هذا الإله الكريم المعطي الحليم الجواد الرحيم.

ثم إنني إذا تذكرت ما أقوم به، وتقصيري، وقصوري عن بلوغ أدنى درجات الشكر الذي يليق بكرمه، أو الذكر الذي يليق بجلاله، أو التعبد الذي يليق بمقامه سبحانه، وإذا استغرقتني هذه المعاني، فسينفتح لي باب الخوف في قلبي.

والعبد ينبغي أن يراوح بين هذا وذاك، فيصبح -كما قال ابن القيم في إحدى تشبيهاته الجميلة- كالطائر الذي له جناحان، جناح رجاء وجناح خوف، وكأنه يطير بهذين الجناحين.

والتوازن بين الأضداد أيضاً من السنن الإلهية الثابتة، وهنا لابد أن يحدث توازن بين الرجاء والخوف حتى يطير الطائر، لأنه لا يستطيع أن يطير بجناح واحد!

فمن الانحرافات في هذا الباب أن يتعدى الرجاء إلى (الأمن). وهذا يعني أن يأمن الإنسان من العقاب. { وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}، وهذا قد ورد في شأن بعض الأمم من قبلنا وقد كانوا يظنون أنهم شعب الله المختار أبداً، بغض النظر عن عملهم، كما يظن بعض المسلمين اليوم أنهم ما داموا مسلمين فمهما فعلوا فلا يهم ولا يضر، وقد قال تعالى: {فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}، فلا ينبغي للرجاء أن يصبح أمناً أو توهم وجود ضمان مع الله سبحانه وتعالى، ليس هناك ضمان إلا في الجنة.

ومن الانحرافات في هذا الباب كذلك أن يتعدى الخوف حتى يكون قنوطاً من رحمة الله سبحانه وتعالى! رغم قوله تعالى: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، وقال: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}.

والمطلوب هنا هو أن يكون هناك توازن بين الرجاء والخوف، فنتوب إلى الله سبحانه وتعالى ونرجوه من فضله ومنّه وكرمه أن يعفو عنا، وفي نفس الوقت نخاف من الله عز وجل ألا يتقبل منا، وألا يمنحنا ذلك العفو بسبب التقصير وبسبب ارتكاب الذنوب. لكن لا ينبغي للذنوب أن تصدنا عن الرجاء في رحمة الله سبحانه وتعالى، كما لا ينبغي للرجاء أن يصدنا عن الخوف من الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا حسن الفهم وحسن الصلة به وأن يفتح علينا من أبواب الخوف والرجاء ما يحسّن به أحوالنا، حتى نمشي على الصراط المستقيم ولا نزيغ أبدًا، وصلى اللهم على سيدنا محمد.

المحطة الرابعة والعشرون

مراعاة الأولويات

مِنْ عَلاماتِ اتِّباع الهَوى المُسارَعَةُ إلى نَوافِلِ الخَيْراتِ، وَالتَّكاسُلُ عَنِ القِيامِ بالواجِباتِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطوة التالية في الطريق إلى الله تتطلب علماً وفقهاً. (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، كما يقول الحبيب صلى الله عليه وسلم. والفقه هنا ليس فقط معرفة الأحكام الفقهية المتعلقة بالمسائل العملية المختلفة، بل هو بالأساس بمعنى الفهم والإدراك للإسلام وأحكام الإسلام المختلفة من خلال مراتبها ودرجاتها، وهذا مهم في الرحلة إلى الله.

فمثلاً، إذا كان عندك وقت محدد، وعليك فرض واجب، ويمكن أن تؤدي نافلة في نفس الوقت، فالواجب أهم من النافلة. وحكم الشرع هو أن تؤدي الواجب قبل النافلة أياً كانت، لأن من علامات اتباع الهوى كما يقول الشيخ أن تأتي النافلة وتهمل في نفس الوقت الواجب. ذلك أن شرائع الإسلام أيها القارئ الكريم ليست كلها سواء، والقول إنها كلها سواء كلام يفتقر إلى العلم والفقه والفهم.

الإسلام فيه الأصل الكبير وفيه الفرع الصغير، وفيه الفرض اللازم وفيه السنة الاختيارية، وفيه المعصية الكبيرة وفيه المعصية الصغيرة، وينبغي على المسلم أن يدرك هذا، وإلا فإنه يتبع الهوى ولا يتبع الشرع، ويتبع المظاهر ولا يتبع الجوهر، لأنه غالبًا ما تتعلق نوافل الأعمال بالمظاهر وبالشكليات وبالتتمات، ولذلك فهي ثانوية. فعمل القلب في الإسلام أهم من عمل الجارحة ومعصية القلب أخطر من معصية الجارحة.

ما هي الواجبات؟ هى ما يتعلق بالعبادات وبالأصول، فمثلًا، إذا كان عندك قدر من المال يكفي إما للحج أو للتبرع لتحسين المسجد، فينبغي أن تأتي بالحج المفروض، لأن هذا هو الواجب، وتؤجل التحسين والتجميل لأنه ثانوي، وإلا فأنت تتبع هواك لا الشرع. ولكن إن كنت في نفس الوقت محتاج لذلك المال للنفقة على أمك وقد كبرت، أو صغير أنت مسؤول عنه، فهذا أولى حتى من الحج، لأن هذا واجب للوقت الحالي والحج يمكن أن يؤجل. وإلا فهناك خطأ في التفكير ومرض في القلب.

مثال آخر: إذا كان عندك وقت محدود، يكفي لأن تصلى إما تحية المسجد أو الصلاة المفروضة في وقتها، ولو صليت تحية المسجد ضاع الفرض، فهل تصلى تحية المسجد أم الفرض؟ الجواب: الفرض بالتأكيد، فلو صليت تحية المسجد وذهب الفرض فهذا حرام، بل من علامات الخطل في الفكر واتباع الهوى.

ونرى من الناس -للأسف- من يحرص على نوافل الخيرات والشكليات، وفي الوقت نفسه يضيع الواجبات والأساسيات. فمن الواجبات الذي لا يختلف عليها مسلمان البر بالأم والأب: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا}، ومن الواجبات الأصيلة في الإسلام ألا يضيع المسلم أمانات الناس: {فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}، وألّا يسب ولا يشتم: (ليس المسلم بشتام ولا لعَّان ولا صخَّاب).

ولكننا نرى في المجتمع أناس، الرجل منهم يزعم أنه على سنة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هدي الظاهر تمامًا، من الملبس إلى الهيئة إلى الرائحة إلى الجلسة إلى لون الثياب، ثم تتعجب أن نفس الشخص: عاق لوالديه، أو ينصب ويسرق حين تتعامل معه بالدينار والدرهم، أو يضيع الأمانة، أو يسبّ الناس، أي أنه مضيع للواجبات.

وتجد من الناس مثلًا من لا يصلي الفرائض أبداً، ويصلي العيد تحت أي ظرف من الظروف! ولكن العيد من النوافل، أي صلاته سنة وليست فرضًا، والصلوات الخمس هى الفرض الذي لا ينبغي أن يضيع. هذا من علامات اتباع الهوى لا الشرع.

وتجد بعض الناس يأتون الكبائر علناً وعلى شاشات التلفاز، ثم يداومون على العمرة كل موسم! ولكنّ العمرة من النوافل، وإذا ضاع عمرك ولم تذهب للعمرة فلست آثمًا، ولكن إذا ضاع العمر ولم تتب من الكبائر ولم تتورع عنها فأنت على خطر عظيم.

إذن، من علامات اتباع الهوى أن يختل ميزان المسلم في التفكير وأن يختل ما يسميه العلماء بـ (فقه الأولويات). فهناك أولوية للفرض على السنة، وأولوية للأصل على الفرع، وأولوية لمعالجة الكبائر قبل الصغائر. فينبغي أن نأتي بالفرض والأصل قبل السنة والفرع. وينبغي أن نتطهر من الكبائر والمعاصي أولاً وقبل كل شئ. وهذا من حسن الصلة بالله سبحانه وتعالى، ومن الصدق في الالتزام بالشرع والحرص على الحق.

بل ونسمع كثيراً أن الله عز وجل قد تحدث عن النوافل في الحديث القدسي الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه فقال: (مازال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه). ولكن ننسى أن أول الحديث ليس :(مازال عبدي يتقرب إلى بالنوافل)، بل إن بداية الحديث في كل رواياته هي: (ما تقرب عبدي إلىّ بشيء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، ... الحديث)، لكننا غالبًا ما ننسى البداية التي تبين أن أحب شيء إلى الله هو الفرائض، أي أولوية الفرض على النافلة.

وإذا وفيت الفروض من زكاة وصلاة وصيام وحج، وبُعد عن المعاصي، وبر الوالدين، والإحسان إلى الكبير والصغير، إلى آخر فروض الإسلام، فقد أحسنت ودخلت الجنة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإسلام لم يبدأ بالشكليات! فقد سأله أعرابي عن الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات في اليوم والليلة – وأشار بيده-، قال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطّوع، ... إلى آخر الحديث. فهنا لم يشرح الرسول صلوات النوافل والوتر، بل مضى ليذكر صيام رمضان وشرح ذلك، قال الرجل: هل علىّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تطّوع، ومضى ليذكر حج البيت، وهكذا شرح صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام، حتى ذهب الرجل قائلاً: والله لا أزيد عن هذا ولا أنقص –يعني أنه سوف يؤدي الفرائض فقط-، فقال صلى الله عليه وسلم: أفلح إن صدق.

وهذا أصل شرعي واضح في أننا لو صدقنا الله عز وجل فقط في الفرائض دون كل النوافل والأوراد والأعمال والأشكال والألوان، والتزمنا بالفرائض من ترك الحرام وإقامة الصلاة والزكاة والحج، والفرائض التي افترضها الله عز وجل علينا، مع ترك الحرام، لو فعلنا ذلك لأفلحنا كما أخبر الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم.

إذن، من علامات اتباع الهوى أن يصرف العبد الوقت أو الجهد أو المال المحدود على نوافل الخيرات وهو تارك للواجبات، ومن حُسن السير إلى الله سبحانه وتعالى أن يتفقه المسلم حتى يعلم الأساسيات والفروض في الإسلام، وأن يوفى هذه الجوانب أولًا، ثم بعد ذلك يتقرب بالنوافل بعد أن يوفي الفرائض.

نسأل الله عز وجل أن يوسع لنا من مغفرته، ومن حلمه ومن كرمه علينا، وأن يتجاوز عن تقصيرنا، وأن يهدينا إلى الفقه والفهم السليم لدينه، حتى نكون على بينة وبصيرة في رحلتنا إليه.

المحطة الخامسة والعشرون

التعبير للخلق عن الحق

كُلُّ كَلامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ القَلْبِ الَّذي مِنْهُ بَرَزَ. مَنْ أُذِنَ لهُ في التَّعْبيرِ فُهِمَتْ في مَسامِعِ الخَلْق عِبارَتُهُ، وَجُلِّيَتْ إلَيْهِمْ إشارَتُهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المرحلة في السلوك إلى الله تعالى تتعلق بالكلام الذي يلقيه العبد على الناس ويحدثهم فيه عن الله. وكل عبد لله حقاً عليه مسؤولية أن يدعو الناس إلى خالقهم، ويذكّر الناس بمولاهم، وأن يصلح في هذا الكون. {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ}. {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي}.

والكلام كثير! {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}، كما يقول الحق تعالى. ولكن هناك نوع من الكلام يذهب مذهباً بعيداً، ويؤثر تأثيراً عميقاً وواسعاً في نفوس الخلق. وهذا الكلام -كما يعلّمنا الشيخ- ليس هو الكلام البليغ المنمّق الذي يخرج من عقل ذكي أو لسان ذرب، وإنما هو الكلام الذي يخرج من قلب سليم!

ويحضرني في هذا المقام كلام الأنبياء والمرسلين، وكلام الصالحين، الذين خرج كلامهم من قلوب نيّرة، و(عليه كسوة من القلب الذي منه برز)، كما يقول الشيخ، واستحقت عباراتهم أن يسجّلها المولى تعالى في كتابه الكريم. والأمثلة كثيرة.

انظر إلى كلام أبي الأنبياء إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم، حين يقول لقومه: {أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

وكلام نوح صلى الله عليه وعلى محمد وسلم: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ. فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

وحوار موسى صلى الله عليه وسلم مع فرعون وملئه: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ}.

وكلام عيسى صلى الله عليه وسلم: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}.

وكلام مؤمن آل فرعون: {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ. لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}.

كل هذا الكلام خرج و(عليه كسوة من القلب الذي منه برز)، وهو قلب مؤمن منير.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعبر للخلق تعبيراً يخرج من قلب مفعم بالحب لله والحرص على الناس، ويبدو فيه حال هذا القلب. خذ مثلاً خطبته في غزوة تبوك: (أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص القرآن،

وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير العلم ما نفع، وخير الهدى ما اتُّبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الصلاة الا دبراً، ومنهم من لا يذكر الله الا هجراً، وأعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما وقر فى القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والخمر جماع الإثم، وإنما يصير أحدكم الى موضع أربعة أذرع، والأمر الى آخره، وملاك العمل خواتمه، ومن يغفر يُغفر له، ومن يعفُ يعفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يسمّع يسمّع الله به، ومن يتصبر يغفر الله له، ومن يعص الله يعذبه).

وهذا كلام يخرج من قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم فيدخل في مسامع الناس فيفهم ويؤثر في قلوبهم، وهذا شرط أساسي لمن أراد أن يعبّر للخلق عن الحق؛ أن يخرج الكلام من حال قلبي خاص حتى يؤثر في الناس.

ولذلك إذا أردت أن تنصح أحداً أو توجهه فأصلح قلبك، وكلما صلح قلبك كلما كان التوجيه أفضل وأعمق، أي (فُهمت في مسامع الخلق عبارتك، وجليت إليهم إشارتك)، كما يقول الشيخ هنا.

وانظر إلى كلام الصحابة الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم، تجد أمثلة رائعة لكلمات معدودات يقولها الصحابي من قلبه، لا تغير الناس فقط بل تغير التاريخ! كقول أبي بكر رضي الله عنه: (وُلّيت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)، أو قول عمر رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟)، أو قول عثمان رضي الله عنه: (أيها الناس، إنكم تحتاجون إلى إمام فعّال ولا تحتاجون إلى إمام قوّال)، أو كقول على رضي الله عنه: (مات خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة)، وغيرهم وغيرهم، مما

يدل على أن الحال القلبي يجعل الكلام القليل مسموعاً عبر القرون ومفهوماً عبر الثقافات.

المحطة السادسة والعشرون

الرضى

مِنْ تَمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أنْ يَرْزُقَكَ ما يَكْفيكَ وَيَمْنَعَكَ ما يُطْغيكَ.
لِيَقِلَّ ما تَفْرَحُ بِهِ، يَقِلَّ ما تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه مرحلة تالية تتعلق بقضية الرزق وقضية الفهم عن الله عز وجل في الرزق، وقول النبي صلى الله عليه وسلم (ما قل وكفى خير مما كثر وألهى) الذي ذُكر آنفاً، صاغه الشيخ في حكمة قال فيها: (من تمام نعمته عليك أن يرزقك ما يكفيك وأن يمنعك ما يطغيك، فإذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه).

فقد يرزق الله عز وجل العبد الكفاية، أي ما يكفيه لا أكثر ولا أقل، ويكون هذا من تمام نعمة الله عز وجل عليه، لأن الله إذا رزق الإنسان رزقاً واسعاً فلعله يطغى: {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}.

وهذا من طبيعة البشر، فقد قال تعالى: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء}. هذه سنة الله في الفطرة البشرية، أن الله لو أعطانا الرزق مبسوطاً دون حد لطغينا. والله عز وجل إذن {ينزل بقدر ما يشاء}، وهذا من تمام نعمته علينا ورحمته بنا.

وقد يعلم الله عز وجل أنه إذا اعطاك مالًا كثيرًا فلن تطغى، فيعطيك مالًا كثيرًا، ولكنه قد يعلم أنه إذا أعطاك الجاه الكثير فسيطغيك وتظلم الناس فلا يعطيك جاهًا، بل يعطيك مالًا مثلاً ويمنع عنك الجاه، أو العكس، أو غير ذلك من أنواع العطاء والمنع. وهو في كل ذلك متفضل عليك ويحميك حتى من نفسك. فلا تنظر إلى ما منعت وتتمنى شيئاً قد يطغيك، لأن (ما قل وكفى خير مما كثر وألهى)، كما قال صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول: (فإذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه). لأن هذا الذي يطغيك ينم عن فرح بالدنيا، فرح بمعنى: الغرور في الدنيا. فالفرح نفسه طبعًا ليس منكراً من الدين، فالله يقول: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}، والعبد المؤمن يفرح بفضل الله عز وجل، ولكن الفرح المذموم بشيء هو الذي يُحزنك عليه إذا فقدته.

وهذا المعنى هو مصداق قوله تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}. فإذا فرحت بجاه أو ولاية أو منصب أو شيء من ذلك، فاعلم أن الدنيا والمناصب تزول، ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك، كما يقال، أي أن أي ملك أو جاه أو منصب مهما كان، لو دام لمن قبلي ما وصل إليّ، ولو دام لي ما وصل لمن بعدي، فهذه المناصب لا تدوم، والمال نفس الشيء، فالمال يزول ويأتي لي ويبقى ثم يزول بضياع أو بموت، وقس على ذلك ما تشاء من متاع هذه الحياة. {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك}.

فالقضية أنه إذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه، وهذا قد يكون من نعمة الله عز وجلت عليّ أن يعطيني ما يكفيني، حتى لا أحزن كثيرًا بفقداني لما لا أحتاجه على أي حال. فإذا عندك كفاية من الطعام والشراب والمال والأهل ومتاع الدنيا و(مستور)، فهذا من تمام

النعمة، وأنت محظوظ، لأن الله منعك أن تكون مثل السلاطين والملوك، أو مثل المترفين، فلابد أن تشكره على تمام وجمال وكمال ما أعطاك سبحانه وتعالى. وافهم عن الله سبحانه وتعالى أنه في عطائه ومنعه حكيم ولا يقصد بك إلا الخير. وحقق الرضى، فما أجمل الرضى!

المحطة السابعة والعشرون

التواضع

لَيْسَ المُتَواضِعُ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأى أنَّهُ فَوْقَ ما صَنَعَ. وَلكِنَّ المُتَواضِعَ الَّذي إذا تَواضَعَ رَأى أنَّهُ دُونَ ما صَنَعَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

التواضع خلق أساسي من أخلاق السائرين إلى الله وخصلة لابد للعبد أن يحرص عليها ويراقب نفسه خوفاً من أن ضيّعها. وعكس التواضع الكبر، وهو عيب جدّ خطير. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذره من كبر)، ثم فصّل فقال: (الكبر بطر الحق وغمط الناس). وبطر الحق إنكاره، وغمط الناس احتقارهم.

قال الله تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}. وقال: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.

وغمط الناس واحتقارهم تعني إنك إن تبسطت مع (فلان) ورأيت – حاشا لله- أنك فوق (فلان) فهذا هو عين الكبر وليس من التواضع في شئ. رغم أن هذا التبسط شكليا يظهر للناس أنه تواضع، لكن التواضع لابد أن يأتي من القلب، ويعني أن تتبسط مع (فلان) وترى أنك أقل منه حقاً، وربما أقل من كل الناس.

والسؤال: كيف أشعر بذلك؟ والجواب: بالنظر إلى معيار الدين وليس إلى أي معيار آخر، هو قد يكون أقل اجتماعياً أو مادياً أو بأي اعتبار من الاعتبارات التي تقاس في دنيا الناس. لكن ينبغي أن أقول لنفسي: لعله أقرب إلى الله سبحانه وتعالى مني، وهذا ما لا يعلمه أحد إلا الله! لعله إنسان أحكم أخلاقاً وأزيد إيماناً وأكثر جهاداً لنفسه وللناس، ولعله مبتلى بأشياء وهو يصبر عليها، فلعله أفضل مني بما لا يقارن من الدرجات عند الله.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريّ إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مر رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال إن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا).

فالتقييم الأول هنا كان بناء على معايير مادية و(أشكال نمطية)، كما نقول بلغة العصر. والتقييم الحقيقي الصحيح، وهو تقييم الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يعتبر شيئاً إلا معيار الدين. والرجل الثاني بمعيار الدين أفضل من مليارات من مثل الرجل الأول!

ولذلك فالتواضع أن يرى العبد أنه أقل من الناس حقيقة وصدقاً، لأن العبرة بالتقوى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، وهي معيار لا يعلمه إلا الله: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}.

إذن، ليس المتواضع كما يقول الشيخ: الذي إذا تواضع رأي أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأي أنه دون ما صنع.

وننظر إلى مثاله صلى الله عليه وسلم، وهو من هو، لكن الله عز وجل أمره فقال: {واخفض جناحك للمؤمنين}، وخفض الجناح هذا مثل قوله تعالى في حق الوالدين: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة}، وهذا من أعلى درجات التواضع. والنبي صلى الله عليه وسلم كان هيناً ليناً، وفي الحديث أنه كانت تأخذه الجارية فتذهب به في المدينة حيث شاءت، أي طفلة صغيرة تذهب لتسأله عن شيء أو تريه شيء فيذهب معها صلى الله عليه وسلم. وكان إذا مر ببعض الصبية يبدأهم صلى الله عليه وسلم بالسلام. هذا هو التواضع.

وأمره ربه تعالى بقوله: {فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}، وهذه كلها من صفات المتواضعين، فالمتواضع يعفو عن الناس، ويدعو للناس، ويشاور الناس. والذي يحسّ أنه لا يحتاج إلى مشورة الناس، ولا يحتاج إلى أن يتعلم لأنه يعرف كل شيء ويفهم كل شئ، فليس بمتواضع، بل هو إنسان متكبر، والعياذ بالله.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان من تواضعه أحياناً أن يغير رأيه بناء على المشورة، وهذا في الأمور الدنيوية لا في أمور الوحي طبعًا، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يشاور، وكان الصحابي يتجرأ أن يقول له: (ليس هذا بمنزل)، أي هذا رأي غير سليم، لابد أن ننزل بعد بئر الماء، أو نحفر خندق، أو غير ذلك.

والله عز وجل خلقنا كلنا سواء وجعل بعضنا فوق بعض درجات في مسائل العقل والوظائف والمال والصحة والجاه، ولكن هذه المسائل لا ينبغي أن تؤدي إلى الكبر في القلب وإنما تؤدي إلى شكر نعم الله علينا عز وجل. فليس المتواضع الذي يتواضع شكلاً أو يجلس مع هذا أو

يتكلم بكذا وهو يرى أنه فوق ما يصنع! وإنما المتواضع لابد أن يرى في قلبه أنه أقل من الناس، وأنه يحتاج إلى الناس، وآرائهم، ودعائهم.

المحطة الثامنة والعشرون

بركة العمر وامتداد الأثر

رُبَّ عُمُرٍ اتَّسَعَتْ آمادُهُ وَقلَّتْ أمْدادُهُ، وَرُبَّ عُمُرٍ قليلَةٌ آمادُهُ كَثيرَةٌ أمْدادُهُ. فمَنْ بُورِكَ لَهُ في عُمُرِهِ أدْرَكَ في يَسيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مِنَنِ اللهِ تَعالى ما لا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوائِرِ العِبارَةِ وَلا تَلْحَقُهُ الإشارَةِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

في المصطلح الإسلامي خاصة عند أهل السلوك، هناك ما يسمى بـ (البركة). والبركة عرفها العلماء بأنها: خير الله عز وجل في الشيء، أو الخير الإلهى يظهر في الشيء، وأن يبارك الله في الشيء معناه أن يجعل فيه الخير.

والشيخ في هذه الحكمة يقول: (رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورُب عمر قلت آماده واتسعت أمداده). و(اتسعت آماده) أي أعداد سنينه، أي كثرت السنين وطال العمر، و(قلت أمداده) أي قلت بركته، أي المدد والخير من الله سبحانه وتعالى فيه، أي أن الشيخ يقول: رُب عمر طويل ولكنه قليل البركة، والعكس صحيح، فرُب عمر قصير ولكنه كثير البركة والخير.

ثم يقول: (فمن بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة). ومعنى هذا الكلام أنك لا تستطيع أن تحصى أو تحصر ما يحصل من نعم الله تعالى في عمر قليل ولكنه مبارك.

انظر إلى عُمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المثل الأعلى. ففي عشرين سنة بعد نزول الوحى، غّير الدنيا، وبلغ رسالة الله للإنس والجن، وحوّل مسار التاريخ البشري كله إلى يوم القيامة، صلى الله عليه وسلم. فهذا عُمر مُبارك ما زال يفيض علينا بالخير كل يوم وكل ساعة. فكل صباح من صباحاته وكل ليلة من لياليه –بأبي هو وأمي- كان الخير يفيض منه إلى الناس والمثل والمعاني، وحتى الأشجار والأحجار والأشياء. كل كلمة تحمل علماً، وكل توجيه يصنع رجلاً، وكل قرار يفتح باباً من أبواب الخير لا يغلق إلى قيام الساعة. ما أعظم البركات وما أوسع الأمداد، رغم قلة الأعداد.

ونرى أمثلة على نفس المعنى في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وفي أئمة الإسلام، حيث تجد من الصحابة من عاش حتى الثلاثين أو الأربعين فقط لا غير، ولكنه ترك أثراً واسعاً في الإسلام، وحقق في

سنين قليلة الكثير والكثير، فمصعب بن عمير رضي الله عنه مات شاباً، ولكنه فتح يثرب فتح دعوة قبل هجرة الرسول إليها، وترك في تاريخ الإسلام أبلغ الأثر. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه كان خليفة على المسلمين ثلاث سنوات فقط، ولكن الله عز وجل حفظ به الإسلام، وهكذا.

ومن أئمة الإسلام من لم يتجاوز الستين، ولكنه ترك عشرات الكتب الهامة ومئات التلاميذ النبغاء وعلم موروث ملأ الأرض من بعدهم إلى يومنا هذا، كالإمام الشافعي والإمام الغزالي والإمام ابن القيم، وغيرهم.

ثم إنه من نعم الله علينا – إذ علم أن هممنا واخلاصنا وحالنا يتقاصر عن المقارنة مع هذه المقامات العالية وأننا نحتاج إلى فيض من رحمته المحضة وكرمه الخالص حتى نتحصل على خير، أي خير – أقول إن من منن الله تعالى أن يبارك في بعض الأوقات بركة خاصة، ويجعل الله فيها الخير أكثر من غيرها: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة}، وهي ليلة القدر، إذ جعل الله عز وجل فيها الخير مضاعفاً، حتى أن عبادتها خير من عبادة ألف شهر، {وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر}.

وهناك أوقات مباركة أخرى، فيوم الجمعة يوم مبارك، وساعة ما قبل الفجر ساعة مباركة، و(بركة أمتي في البكور)، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الأوقات المباركة جعل الله عز وجل فيها الخير تحفيزاً لنا على اغتنامها. فمثلاً، (البكور) وهو الساعات الأولي من الصباح والتي غالباً ما ينام فيها الناس، لو تغتنمها في العمل تنجح في عملك، أو في شيء من رياضة أو كتابة أو عبادة تنجح في ذلك إن شاء الله؛ فهذه الساعات الأولي ساعات بركة.

ومن منن الله تعالى كذلك أن يبارك في بعض الأماكن. فهناك أماكن اختارها الله تعالى ليكون فيها من الخير أكثر من أماكن أخرى. يقول تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله}، ويقول: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين}، فهذه بقع تحصل فيها البركة.

والبركة أيضاً تأتي مع الإخلاص، فإذا أخلصت لله عز وجل في عمل يبارك الله فيه. فتعمل العمل اليسير أحياناً ثم تنساه فيبارك الله عز وجل فيه فتجده بعد سنين وقد أصبح عملا كبيراً نافعاً، تنصح ولداً أو شخصاً، أو تصلح شيئاً، أو تتصدق صدقة يسير، ثم يبارك الله في عملك المحدود حتى يصبح شيئاً كبيرًا من حيث لا تدري ولا تحتسب! هذا من بركة العمر وكرم الله المحض الذي لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة.

خاتمة

عود على بدء الرحلة

الخذْلانُ كُلُّ الخذْلانِ أنْ تَتَفَرَّغَ مِنْ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إلَيْهِ،
وَتَقِلَّ عَوائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْهِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس للرحلة إلى الله نهاية! وإنما هو طريق دائري، كلما ظننت أنك في نهايته، دار بك حتى تعود إلى ما بدأت به، وكأننا نطوف حول الكعبة، والعود أحمد وأعلى وأزكى إن شاء الله. وهذه الـ (دورات) من سنن الله تعالى في خلقه كله، فالحياة على هذه الأرض دورة، وهي تحتوي على دورات ودورات متداخلة.

فدورة حياة الإنسان تبدأ من تكوّن النطفة إلى أن يبلغ الإنسان أشده ثم يموت ويُبعث في دورة أخرى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}.

ومثلها دورة النبات على الأرض: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. ولاحظ كلمة (كَذَلِكَ)، والتي تدل على أن دورة النبات شبيهة بدورة الإنسان.

بل إن دورات الكواكب والأقمار والنجوم في أفلاكها لا تخرج عن نفس القانون. {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. فيولد الهلال –مثلاً- ثم ينمو حتى تكمل استدارته، ثم يعود: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

وحتى المجتمعات والحضارات تمر بنفس الدورة، من الميلاد إلى بلوغ الأشد ثم إلى الزوال! { وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}. وهكذا كل دورات الحياة؛ منحنى صاعد ثم يهبط، شهيقاً وزفيراً.

والرحلة إلى الله تعالى لا تنقطع، وفي كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان لابد من الاستمرار في الرحلة إلى الله. ولكن، تمر على العبد مراحل في حياته، المشاغل والعوائق فيها أقل من المراحل الأخرى. هنا يقول الشيخ في نهاية توجيهاته: (الخذْلانُ كُلُّ الخذْلانِ أنْ تَتَفَرَّغَ مِنْ الشَّواغِلِ ثُمَّ لا تَتَوَجَّهَ إلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوائِقُكَ ثُمَّ لا تَرْحَلَ إلَيْهِ)، وهذا مصداق قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}. فلابد للعبد أن يستثمر فترات الفراغ هذه لبدء الرحلة من جديد! قال صلى الله علية وسلم: (اغتنم خمس قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك).

وكما بدأنا هذه الرحلة بالرجاء في الله سبحانه: (من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل)، ننهيها بالرجاء فيه تعالى أن يتجاوز عن زلاتنا وعيوبنا وتقصيرنا، وأن يكافئنا من محض فضله وكرمه ورحمته، لا لشيء مما فعلناه، وإنما هو جهد المُقل، والله عز وجل هو الذي يبارك في العمل من فيض رحمته.

ثم نجدّد الهمة، ولكننا نعلم أن: (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار)، وأن المسلم عليه أن يسعى، ولكن ليس عليه إدراك النجاح، (أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك).

ونذكّر أنفسنا بالإخلاص: (الأعمال صورا قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها)، ونذكّر أنفسنا كذلك أن طريق إصلاح القلب هو التفكر في خلوة أو عزلة: (ما نفع القلب شيء مثل عزله يدخل بها ميدان فكرة).

وفي العزلة والاعتكاف، تغيب الأكوان والشهوات والغفلات والهفوات: (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟). فعبادة التفكر هي طريق الإحسان.

ولابد دائماً أن يغتنم المسلم الوقت والعمر: (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)، وأن يبادر إلى الأعمال الصالحة، وأن يرجع إلى الله عز وجل في البدايات: (من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته)، وهو ما يذكرنا بتصحيح نياتنا والإخلاص والاستخارة والعودة إلى الله عز وجل في بداية كل عمل.

ولا ينقطع كذلك اكتشاف واستكشاف المرء لعيوب نفسه، حتى يتخلى عن العيوب قبل أن يتحلى بالمكرمات: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب).

وأول عيب هو (الرضا عن النفس)، لأن (أصل كل معصية وغفلة وشهوة، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها). والنفس البحّاثة عن عيوبها هي النفس اللوامة، وهي الصحبة الصالحة المطلوبة: (لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله. ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوء منك حالاً). فتصحب دائما من هو أحسن منك حالاً، حتى لا تحس في نفسك الإحسان وتستمر في البحث عن عيوب النفس ولومها وتحسين العمل.

ولا يصح أن نترك الذكر حتى ولو أحسسنا بعدم حضور القلب: (لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فربما نقلك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، {وما ذلك على بعزيز}).

ومن العيوب الخطيرة الطمع، وهو يؤدي إلى الذل بل والعبودية لغير الله والعياذ بالله: (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع، وما قادك مثل الوهم. أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت له طامع). الوهم يقودني إلى أن أظن أن الناس عندهم رزقي، وهو وهم، والأوْلي أن أطمع فيما عند الله، فأذل نفسي له لا لغيره. والحرية هي أن أكون عبداً لله لا سواه.

ثم: (من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان)، مصداقاً لقوله تعالى: {ولقد أخذناهم في العذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون}. (ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها)، مصداقاً لقوله تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد}.

ولابد من حسن الفهم عن الله تعالى في عطائه وفي منعه: (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك)، مصداقاً لقوله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول رب أكرمن وأما ابتلاه فقدر عليه رزقه فقال رب أهانن. كلا}، فرب شيء تراه منعاً وهو عطاء، أو تراه عطاءً وهو منع.

و(إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه)، (فربما فتح لك باب الطاعة فما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك الذنب فكان سبب للوصول. معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً).

(ومتى أوحشك من خلقه فأعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس له)، وهذا ليس بمنع، لأنه قد تكون الوحشة والانعزال والسفر وغير ذلك - تكون فتحاً عليك، ومنحة وليست محنة.

والدعاء كذلك لا ينبغي أن ينقطع أبداً، (ومتى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك). وإجابة الدعاء تكون في الدنيا أو في الآخرة.

والله عز وجل: (لما علم منك وجود الملل لون لك الطاعات، وعلم ما فيك من الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات)، فتتجاوز عن الملل بأن تلون الطاعات، فتصلى وتتصدق وتصوم وهكذا.

وفي كل هذه العبادات وفي الصلاة هناك مراتب للأداء، (فما كل مصلٍ مقيم). ومراتب الخشوع هي ذل وانكسار، ثم إجلال وهيبة، ثم فرح وسرور، أي إسلام وإيمان وإحسان.

وإذا تذللنا وافتقرنا واضطررنا، فإن هذا يسرع إلينا بالإجابة وبالمواهب كلها. (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار)، مصداقاً لقوله تعالى: {أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه}.

ثم: (لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها)، والغفلة عن ذكر الموت من العيوب التي ينبغي للمسلم أن يتخلص منها؛ وإنما ينبغي أن يترقب الآخرة.

والمؤمن إذا مُدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه: (فالناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك، لما تعلمه منها، فاجهل الخلق من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس). فلا تترك اليقين للظن.

ومن المهم الموازنة بين الرجاء والخوف، حتى لا ينقلب الرجاء إلى أمن من مكر الله سبحانه وتعالى، وحتى لا ينقلب الخوف إلى يأس من رحمة الله سبحانه تعالى. و(إن أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك، وإن أردت أن ينفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه).

و(من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات)، فلابد أن يرتب المسلم الأولويات ترتيباً جيداً، فيقوم بالفرائض قبل أن يقوم بالنوافل، وأن يوظف الجهد والمال والوقت في الواجبات والأركان، ثم بعد ذلك ينتقل إلى التحسينيات والنوافل.

و(كل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذي منه برز، فمن أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته). والنبي صلى الله عليه وسلم بكلمات جامعات كان يغير الدنيا، لأنه كلام أتى من قلب عامر سليم.

والرضى والقناعة كنز، لأن: (ما قل وكفى خير مما كثر وألهى)، و(من تمام نعمته عليك أن يرزقك ما يكفيك، وأن يمنعك ما يطغيك،

فإذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه). {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}. والتواضع كنز، ولكن (ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأي أنه فوق ما صنع، وإنما المتواضع الذي إذا تواضع رأي أنه دون ما صنع).

وأخيراً، خير ما يعطيك ربك عمراً مباركاً: (رُب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورُب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده، ومن بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة). وبركة العمر في الأماكن المباركة والأوقات المباركة، وفي بركة إخلاص القصد لله تعالى.

هذا، وإن إصلاح أخلاقنا مع الله سبحانه وتعالى، سوف يصلح الكثير والكثير من أخلاقنا مع الناس، فإذا تخلصنا من الطمع وأحسنّا الرجاء والتوكل والخوف من الله تعالى وحده، فستنصلح أخلاقنا مع الناس، وهذا ما نحتاجه. نحتاج أن نعمر ما بيننا وبين الله، حتى يصلح الله حال أمتنا كلها، وهذه سنة الله تعالى في تغيير الأحوال: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.

نسأل الله عز وجل أن تكون هذه الكلمات المتواضعات موضع قبول وتلقى حسن منه سبحانه، وأن لا يؤاخذنا بها يوم القيامة، وإنما أن يكون هذا من العلم النافع.

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علماً تنفعنا به يا رب العالمين. وصلى اللهم على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.